الرسالة



العدد ١٩٠

٢٢ فبراير سنة ١٩٣٧

السنة الخامسة

5 me Année, No. 190

Lundi - 22 - 2 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique.

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٥

العــــدد ١٩٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــــدد

صفحة

على هامش الرتب والنياشين

شكر المنعم واجب

قال لى صديق وهو أبىّ وفى نزيه : ألا يوحى اليك إنعام العرش وإكرام الوزارة كلمة فى الرسالة ؟ فأجبته جوابا أملس لا يتماسك عليه ايجاب ولا سلب ؛ لأن نفسى قلما تنفعل لما يشغل الناس من مضحكات القلوب فى هذه الحياة . فقال فى لهجة حادة جازمة : إذا لم تكتب أنت كتبت أنا ، لأن الأمر بالنسبة إليك يستغرق الفكر طويلا ويستوجب الشكر جهرة

انصرفت عن صديق ومضيت فى طريق أقاول نفسى فى اقتراحه ، وأداول عقلى على رأيه ، فانثالت على خاطرى معان لا أدرى أين كانت

لاجرم أن الأمر بالاضافة إلى يستغرق كما قال صديق الفكر طويلا ويستوجب الشكر علانية ، ولا ريب أن واجب الشكر على هذا العطف السامى لا يسقط عنى بتسجيله فى دفتر التشريف بقصر المُلك ودار الرياسة ، فانى لم ألق همى إلى هذا الانعام ، ولم أضع نفسى فى طريق هذا الوسام ، ولم أكن ذا منصب فأقدَّم على حسب ما قضيت به من زمن أو أمضيت فيه من كفاية ، ولا صاحب مال فأكرم على قدر ما أنفقت منه فى مشروع

الدفاع أو فى سبيل الخير؛ ولست بالكاتب السياسى الذى يكافأ على عظم جهاده وكرم تضحيته ، ولا بالأديب الصالونى الذى يقرّب للطف مدخله وحسن مصانعته؛ وإنما أنا رجل لا أحسن بطبعى تكاليف المجتمع : أعيش فى زاوية مظلمة من زوايا الحياة ، وأدور فى دائرة ضيقة من دوائر الوجود ، لا أتعرض لأقطاب السياسة ، ولا أتعلق بأصحاب النفوذ ، ولا أخرج عن هذا النطاق الصوفى الذى ضربته على مواهبى ، وحصرت فيه رغائبى وواجبى؛ فأنا كما أجدنى فى شعورى هوى خالصاً من أهواء الطبيعة : أمجد الوادى لأنه الوطن ، وأقدس الملك لأنه الدولة ، وأحب الوفد لأنه الشعب ، وأوثر الخير لأنه الجمال ، وأعشق الأدب لأنه الحياة . فاذا نفذت مع ذلك عين الوزارة إلىّ ، وبسطت جناح برها علىّ ، دل ذلك على يقظة تخترق كل حجاب ، وعدالة تشمل كل فرد ، ونزاهة تفند كل اعتراض

ولا يمكن أن تكون الوزارة قد قصدت بهذا التكريم شخصى الضارع ، وإنما قصدت به ولا ريب تكريم الأدب المستقل فى جندى من جنوده ، وتشجيع الجهاد الثقافى فى ناحية من نواحيه . فأنا عيىٌّ أن أشكر هذه اللفتة الكريمة بلسان الأدب لأنها إلى الأدب ، وعلى منبر « الرسالة » لأنها متصلة بهذا السبب

* * *

كان العهد بالسلطان المطلق أن يكون إنعامه على رأى ابن المقفع أشبه بشجرة الكرم تعلق بأقرب الشجر لا بأكرمه ، فلما غلبت الديمقراطية على طبيعة المُلك ، وقبضت الأمم على أزمة الحكم ، تهيأ لكل فرد أن ينال نصيبه المقدور من الكرامة القومية العامة ، والسيادة الوطنية المشتركة ، وتسنى للنبوغ المستور ، والذكاء المغمور ، والعبقريات الفقيرة ، أن تطاول فى المجد شرف الولادة ، وتنافس فى الجاه سلطان الثروة

وهذا الذى تفعله الحكومة من اقتراحها الألقاب المميزة والأوسمة المشرقة لأبناء الأمة ، ظاهره يخالف طبيعتها الشعبية ، ولكن باطنه يوافق المنطق ولا يعدو الانصاف . فإن المساواة روح الدستور وجوهر العدالة ، فإما أن تلغى هذه الألقاب فيصبح الناس سواسية أمام المجتمع ، كما هم سواسية أمام القانون؛ وإما أن تبتذل هذه المميزات حتى تتدانى الطبقات ويقصر هذا الفرق المهين بين (الباشا) و (الفلاح)

لقد كانوا بالأمس يعيرون الوفد أنه حزب الرعاع وقائد السوقة ، فما بالهم اليوم وقد ورث أمجاد الوطن يعيبونه أن يرفع عن حزبه أو شعبه معرة هذه الإهانة ؟

زعموا أن الديمقراطية العاملة حين ثارت فى فرنسا على الارستقراطية العاطلة ، أوحت إلى العمال العراة الجياع أن يقتحموا قصور السراة والنبلاء ، فلبسوا وشيهم ، وتقلدوا حَلْيهم ، وغرقوا فى مقاعدهم المنجدة ، وطعموا على موائدهم المنضدة ، فشعروا فى ساعة واحدة باسترداد ما فقدوه فى الحقب الطوال من اللذة والعزة والكرامة والعظمة؛ فلم لا يكون ذلك من هذا ؟

* * *

عفواً ! لقد كدت أخرج عن موضوع الشكر وما قضيت منه لبانة وما نقعت به غلة . وليس الشكر بابا من أبواب الملق ولا ضربا من ضروب التنبيه كما يُظن ، ولا هو قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة كما يقال ، وإنما هو للصنيعة كالاعتراف للاقتراف والتسبيح للعقيدة ، يخفف عبء المنة عن الضمير ويكفكف سورة الإيمان عن القلب !

ولئن كان يخجلك فى رأى نفسك من التكريم أن تسعى إليه ، لقد يخجلك فى رأى غيرك ألا تشكره وقد سعى إليك

على أن الأدب نفسه سجل عصره بما فيه من محاسن ومساوىء؛ فهو يضمن الذكر والشكر لمعضده ، كما يضمن المجد والخلود لموجده . والأدب كان ولن يزال لغة التاريخ ، ولسان النهضة ، وقبس الروح ، وومضة الالهام ، ورائد الإنسانية إلى المثل الأعلى؛ فلا يمكن أن يكون رجاله فى عهد الذين اشتهرت زعامتهم به ، وقامت دعايتهم عليه ، أضعف ركناً وأقل شأناً من رجال الأعمال وأصحاب الأموال وعبيد الأرض

ولولا خلال سنها الشعر مادرى بناة المعالى كيف تبنى المكارم

احمد حسن الزيات

أسرة الرسالة والرواية تتقدم بالتهنئة الخالصة إلى أصدقائها وقرائها بعيد الأضحى ، وتدعو الله أن يعيد هذا العيد على العالم الاسلامى بالسلام والوئام والمحبة

فى الحب أيضا

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

أرجو ألا يتوهم أحد أن هذا حديث فى فلسفة الحب فانه لاقدرة لى على الفلسفة ، وقد فقدت ايمانى بها مذ خذلتنى وخيبت أملى وعجزت عن أن تفسر لى شيئا مما يجرى لى فى هذه الحياة . وقد قرأت كثيرا مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث العلمى ، غير أنى لم أقتنع به ولم استرح إليه . ومن سوء الحظ - حظى أنا بالطبع كما لا أحتاج أن أنبه - أنه ليس لى فى هذا الباب تجربة تستحق الذكر حتى كنت أعرض مايقول الفلاسفة والعلماء على ما جربت وأرى إلى أى حد أصابوا ووفقوا . ولست اكتمكم أنى عاجز عن هذا الحب . وعسى أن أكون واهما لا عاجزا . ولكنى ما قرأت قط شعر العشاق وما قالوه فى الصبابة والوجد وفيما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم من الخوالج والاحساسات فى القرب والبعد ، والاقبال والصد ، والمواتاة والحرمان ، ولا سمعت ممن أعرفهم وصف ما جربوا من ذلك إلا قلت لنفسى - حين أخلو بها - « اسمحى لى يانفس أن أقول إنك - ولا مؤاخذة - بليدة » فتسألنى لماذا؟ فأقول « لأنى لا أراك تحسين شيئا من هذا الذى أجمع على وجوب الاحساس به الشعراء والناس قاطبة . فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون أو على الأقل مبالغون؟ » ولا أحتاج أن أقول إنى لا أخرج من هذا الحوار الذى يدور بينى وبين نفسى بشىء آنس به واستريح اليه ، فانها تصر على أن الناس مبالغون وأصر أنا على منطق « قرقوش » المشهور . فقد قالوا إن ناسا كثيرين وضعوا رجلا من الأحياء فى نعش وحملوه فيه كالميت ، فمر قرقوش بجنازته فصاح به الرجل مستنجدا وأكد له أنه لا يزال على قيد الحياة ، فأطرق قرقوش قليلا وفتل شعرات من لحيته ثم رفع رأسه ونظر اليه وإلى الناس وقال : « أتريد أن أصدقك وأكذب هذا الخلق كله؟ » وكذلك أنا مع نفسى - لا يعقل عندى أن تكون هى وحدها على صواب وكل هذه الملايين من النفوس مخطئة أو كاذبة ، أو مبالغة .

ولا أنكر أن نفسى كانت تتحرك أحيانا فاشجعها مسرورا واستحثها فرحا بيقظتها بعد طول السبات ، ولكن أقصى ما جربت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقات تصعد به إلى حلق من فرط شدتها ، فأفهق وتعود فتهوى به إلى قريب من حذائى كأنما هذا ليس قلبا وإنما ركب لى الله سبحانه فى مكانه لعبة من لعب « اليويو » التى شاعت فى الزمان الأخير . وأحيانا أشعر بأن حولى فراغا وأحس شيئا من اللهفة وقليلا من الشوق ، ولكنه شوق هادئ ولهفة محتملة لا تثقل على النفس ولا يشقى بها القلب ولا يسود من جرائها العيش . وشبيه بذلك أن يشتهى الانسان أن يرى شريطا من أشرطة السينما سمع عنه ثناء أو أن يشتاق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضا كبيرا فى بلد ناء . ولا أظن أن هذا يعد حبا بالمعنى القديم أو الحديث

وللسامع العذر إذا تساءل : « كيف إذن كنت تقول الشعر فى شبابك وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع إلى آخر ذلك » والسؤال طبيعى ولكن الجواب عنه حاضر ، ولولا عادة الصدق التى اكتسبتها فى الأيام الأخيرة لعز الجواب . والجواب يعرفه القراء فقد سقته فى فصل سابق عن الحب نشرته لى « الرسالة » وخلاصته أنى أوحيت الحب إلى نفسى

ومن الجرأة أن أزعم أن الناس كلهم كذلك ، ولكنى أقول إن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الايحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعرف . ولو خلت الكتب مما نقرأه فى وصف الحب وأثره فى النفس وألف المرء أن يرى الناس يحبون حبا لا يخرج بالنفس عن الاتزان لصار الحب هادئا فاترا كالصداقة . وأحسب أن الفرق بينى وبين غيرى ليس هو أنى شاذ وهم طبيعيون ، بل إنى تأثرت بايحاء الجماعة وايحاء الكتب وأنا عارف بذلك مدرك له متفطن لحقيقته ، وأن الأكثرين يتأثرون على هذا النحو تماما ولكنهم لا يدركون أن فى الأمر ايحاء ولا يفطنون للحقيقة فيه . والحياة تقوم - كما لا أحتاج أن أبين - على الايحاء ، وكل امرئ يوحى إلى كل امرئ آخر ويستوحى منه ، بل نحن نستوحى الأشياء كما نتلقى الايحاء من الناس .

ويخيل إلى أن الحب اسمه غلط ، فانه يبدو لى أن هذه العاطفة التى نسميها الحب خالية فى الحقيقة من الحب والعلاقة فيها بين الجنسين ليست علاقة مودة . وهذا كلام قد يبدو متناقضا ولكنى

أظنه صحيحا . ذلك أن الحب ضرب من الجوع ؛ ولا تقولوا إنه جوع معنوى فإن هذا يكون تخريفا ، إذ ليس ثم فيما يتعلق بالانسان أو الحياة شيء معنوى . والانسان مادة وكل ما فى الحياة من المادة وإلى المادة ، فلندع هذه الخيالات ولنجتزىء بالحقائق فإن أرضها صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل . والمرء يجوع فيشتهى الطعام أى يطلبه ، لا لأنه يحب الطعام فى ذاته ، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة ، بل ليسد الحاجة التى يشعر بها ويقضى الرغبة التى تلج به ولا يستطيع أن يهدئها بغير الأكل . وكذلك يجوع جوعا من ضرب آخر - جوعا يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعية فى النسل إطاعة لغريزة حفظ النوع ، كما يطلب بالأكل إطاعة لغريزة المحافظة على الذات . وكما لا يقال إن بين الآكل والمأكول مودة ، كذلك لا ينبغى أن يقال إن بين المحبين مودة . إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة فى الالتهام أو الاستحواذ إطاعة للغريزة لا عن مودة . والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهما بالصديقين المتوادين ، لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة ؛ وهما لا يستعملان سلاحا ولا يحدثان جراحا ، ولكن الواقع أن القبل والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين - كل ذلك ليس إلا وسائل للتليين بغية التغلب . وقد استعمل الشعراء ألفاظا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لا يشعرون ، فذكروا فى مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك ، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيبين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل . والحقيقة هى أن الحب حرب واقتتال وفتك ، وغايته - وهى النسل - تنطوى على تعرض للتضحية الكبرى - على الأقل من جانب المرأة - وسبيله الاخضاع ، فالمرأة تحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجيء بالنسل الذى جعلتها الطبيعة أداة له . والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذى يطلبه بغريزته . والحال بينهما دائر أبدا على الكفاح . وفى كل شعر صادق - قديم أو حديث - لمحات عديدة تدل على التفطن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلى لها

والحب يتخذ الصورة التى يؤدى إليها التفاعل بين عاملين : الأول هو الدافع الغريزى للإنسان ، والثانى هو مقاومة الجماعة ، وهي مقاومة مرجعها إلى العرف والدين وما يجرى هذا المجرى . وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهما من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة . وقد كان التحرج شديدا فى الجيل الماضى من ذكر الحب والاعتراف أو المجاهرة به ، لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يستهان به ، وكانت الجماعة تنزع إلى الاحتشام . وكانت قاعدة الحياة من هذه الناحية المثل المشهور « إذا بليتم فاستتروا » ، فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا بحكم القانون بل بقضاء العرف ، وكان الشبان مثلا يستحيون أن يجلسوا فى القهوات ، وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن ، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهينات ، ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا وزلزلت قواعد الحياة فيها وانتشر التعليم وشاع الاطلاع على الآراء الحديثة فى الأمور الجنسية ، وهدمت الهبة القومية المصرية حواجز كثيرة وفى جملتها ما كان يفصل الجنسين ويفرق بينهما ، وصار الناس - شيئا فشيئا - يلهجون بذكر الحب ويتناولونه فى مجالسهم وفى كتاباتهم تناولا هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمى ، ولم يعد الشبان - بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم - ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون فى الأمر موجبا للحماسة أو داعيا للخجل أو باعثا على الاستحياء ؛ وجاء التطور الاجتماعى ولا سيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادما لحاجز منيع بين الرجل والمرأة . وفى الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها ؛ فإذا لم تكن ثم ثمرة فأين الشجرة ؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه فى سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر . ومن أخطار الحرية فى بادئ الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التى تقابل الحقوق . والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب الطويلة والمعاناة المرة والدروس العملية الأليمة . وبذلك فقد الحب الهالة التى كانت حوله وسلب القداسة القديمة ، وصار على الأيام أمرا عاديا ، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية ، لأن وطأة العرف والتقاليد ضعفت وخفت جدا حتى ليمكن أن يقال إنها غير محسوسة فى الأغلب والأعم . وفى مثل هذه الأحوال التى يعظم فيها الترخص والتسامح يندر الحب القوى العميق الطويل العمر ، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر فى ركود الشعر إلى حد كبير فى هذه الفترة من حياتنا الأدبية

إبراهيم عبد القادر المازنى

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٢ —

يدرس ابن سينا النفس من نواح كثيرة، فيحاول أولا أن يثبت وجودها ومغايرتها للبدن، ثم ينتقل بعد هذا إلى حقيقتها فيعرض لجوهريتها وروحيتها ويبرهن على خلودها ببراهين شتى ووسائل متعددة. ولن تفهم حقيقة النفس فهما كاملا إلا إذا حددت وظائفها وبين فى دقة عملها. وابن سينا يتحدث طويلا عن أنواعها المختلفة من نباتية وحيوانية وإنسانية، ويسهب بوجه خاص فى حديثه عن قوى النفس الانسانية الظاهرة والباطنة، وهذا الجزء يلخص تقريباً علم النفس عنده. وواضح أن مشكلة العقل التى تعد أحد الأحجار الأساسية فى بناء الفلسفة الاسلامية والتى شغلت فلاسفة القرون الوسطى على العموم، تتصل اتصالا وثيقاً بقوى النفس الباطنة، وسنتتبع هنا الخطوات السابقة لندلى بفكرة كاملة عن أبحاث ابن سينا فى النفس، ولكنا سنجمل القول فى أقسامه وتفصيلاته الكثيرة المتصلة بأنواعها وقواها لأن هذا فى أغلبه أصبح من علم النفس البائد، وسنكتفى بأن نشير منه إلى مصادره اليونانية. وأما مشكلة العقل فهى من الأهمية بحيث لا تدرس عرضاً وفى ثنايا بحث كهذا، ولا بد لها من دراسة مستقلة سبق لنا أن حاولناها فى كتابنا عن الفارابى (١)

لم يعن مفكرو اليونان كثيراً بالبرهنة على وجود النفس، وكأنهم كانوا يعدون وجودها واضحا بحيث لا يتطلب الأثبات، ومسلماً به إلى درجة لا تقبل الشك أو المناقشة. فالماديون منهم والروحيون متفقون على وجود النفس، وخلافهم فقط فى بيان ماهيتها وتحديد وظائفها. وأطباؤهم وفلاسفتهم مجمعون على أن للظواهر النفسية مصدراً وأصلا تعتمد عليه بجانب الجسم. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن المادية المتطرفة التى ظهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتى تنكر وجود النفس بتاتاً غير معروفة لديهم. ذلك لأن هذه المادية أثر من آثار الطب وعلم وظائف الأعضاء الحديثين، وكل همها أن تفسر الأحوال العقلية جميعها تفسيراً واقعياً تجريبياً، وفى اعتقاد أنصارها أن المخ والجهاز العصبى كفيلان بتوضيح كل أعمال الفكر السامية. لهذا نراهم يصرحون بأنه «لا تفكير بدون الفسفور» وأن «المخ يهضم الاحساسات بشكل ما ويفرز عصارة التفكير افرازاً عضوياً» (١) وما كان الطب متقدما عند اليونان تقدمه فى التاريخ الحديث، ولا كانت وظائف الأعضاء واضحة وضوحها اليوم

ومن الغريب أن ابن سينا الذى تقبل كل مبادىء الطب وعلم وظائف الأعضاء اليونانيين قد عنى عناية خاصة بالبرهنة على وجود النفس وإثبات أنها تغاير البدن. ولعل ذلك راجع إلى أن بعض الماديين قد غالوا مغالاة الماديين المحدثين وتطرفوا تطرفهم، فوحدوا بين النفس والجسم أو أنكروا وجودها رأسا واعتبروا الجسم مبعث الظواهر العقلية على اختلافها. فلم ير بداً من أن يرد عليهم ويبين خطأهم، وقد أشار إليهم صراحة فى إحدى رسائله (٢). وفوق هذا فالمنهج القويم فى رأيه يقتضى أن يبدأ الباحث بأثبات وجود النفس ثم ينتقل بعد هذا إلى شرح وظائفها وأعمالها. يقول: «من رام وصف شىء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أولا أنيّته (يعنى وجوده) فهو معدود عند الحكماء ممن زاغ عن محجة الايضاح. فواجب علينا أن نتجرد أولا لأثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع فى تحديد كل واحدة منها وإيضاح القول فيها (٣)

وهو فى برهنته على هذا الوجود يسلك سبلا عدة ويستخدم وسائل متفرقة. فيلجأ تارة الى العرف العام والاستعمالات الدارجة مستمدا منها بعض الملاحظات الدالة على أننا نؤمن بوجود حقيقة فينا تخالف الجسم. ويركن تارة أخرى الى بعض القضايا الفلسفية

(1) Madkour, (La Place d'al Fârâbî), P. 122-180

(1) Cabanis, (Rapports du physique ert du moral), P. 138.

(٢) ابن سينا، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها)، ص ٨.

(٣) ابن سينا، (رسالة فى القوى النفسانية)، ص ٢٠.

المسلمة من القدامى ليستعين بها على تحقيق هذه الغاية . ويبتكر أحيانا فروضا وتعليلات دقيقة تقربه من بعض الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين . فيلاحظ أن الانسان اذا كان يتحدث عن شخصه أو يخاطب غيره فانما يعنى بذلك النفس لا الجسم . فحين تقول : أنا خرجت أو أنا نمت لا يخطر ببالك حركة رجليك ولا اغماض عينيك ، بل ترمى الى حقيقتك وكل شخصيتك . وقد صاغ ابن سينا هذه الملاحظة على الصورة الآتية « ان الانسان اذا كان منهمكا فى أمر من الأمور فانه يستحضر ذاته حتى أنه يقول إنى فعلت كذا أو فعلت كذا ؛ وفى مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه . والمعلوم بالفعل غير ماهو مغفول عنه ، فذات الانسان مغايرة للبدن » [١] . وإنا لنلمح فى ثنايا هذه الملاحظة فكرة الشخصية أو فكرة « أنا » (l'idée du moi) التى هى مثار بحث طويل بين علماء النفس المعاصرين . فالشخصية أو « الأنا » فى رأى ابن سينا لا يرجع الى الجسم وظواهره ، وانما يراد به النفس وقواها

ومن جهة أخرى تبدو علينا آثار لا يمكن تفسيرها إلا إن سلمنا بوجود النفس ، وأهم هذه الآثار الحركة والادراك . فأما الحركة فضربان : قسرية ناتجة عن دفعة خارجية تصيب جسما ما فتحركه ، وغير قسرية وهى التى تتصل بنا هنا . وغير القسرية هذه منها ما يحدث على مقتضى الطبيعة كسقوط حجر من أعلى الى أسفل ، ومنها ما يحدث ضد مقتضى الطبيعة كالانسان الذى يمشى على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه كان يدعوه الى السكون ، أو كالطائر الذى يحلق فى الجو بدل أن يسقط الى مقره فوق سطح الأرض . وهذه الحركة المضادة للطبيعة تستلزم محركا خاصا زائدا على عناصر الجسم المتحرك ، وهو النفس . وأما الادراك فأمر امتازت به بعض الكائنات على بعض ، واذن لابد للكائنات المدركة من قوى زائدة على غير المدركة [٢] . هذا هو البرهان الطبيعى السيكلوجى الذى يعتمد عليه ابن سينا فى اثبات وجود النفس . وهو كما لاحظ لانداور مستمد فى أغلب أجزائه من كتابى « النفس » و « الطبيعة » لأرسطو [١] . ففى الكتاب الأول يصرح الفيلسوف اليونانى بأن الكائن الحى يتميز من غير الحى بميزتين رئيسيتين : هما الحركة والاحساس [٢] . وفى الثانى يقسم الحركة الى أقسام عدة لم يعمل ابن سينا شيئا سوى أن ردّدها وبنى عليها برهنته السابقة [٣] . بيد أن هذه البرهنة ، فوق أنها برهنة باللازم ، غير مقنعة وخاصة فى جزئها الطبيعى . فأنه لو كانت الأجسام كلها مكونة من عناصر متحدة لكان لهذه البرهنة قيمتها . فأما وهى مختلفة التكوين فلا مانع من أن الجسم الذى يضاد الطبيعة العامة بحركته متمش مع قوانين طبيعته الخاصة ومشتمل على عناصر تسمح له بالحركة . وكم من جهازات وآلات تتحرك حركات مضادة للطبيعة ولا يخطر ببال أحد الآن أنها تحتوى على نفس أو قوة خفية أخرى ، وقد انقضى الزمن الذى كانت تعتبر فيه النفس أصل الحياة والتفكير فى آن واحد ، أو مصدر الحركة والادراك ان شئنا أن نستعمل لغة ابن سينا ، وأصبح علماء الحياة يفسرون الظواهر الحيوية تفسيراً آلياً أو « ديناميكياً » بمعزل عن القوى النفسية تاركين للنفسيين توضيح النفس وظواهرها ، وهؤلاء الأخيرون حتى المعنون فى الروحية منهم لا يذهبون اليوم مطلقاً إلى أن للنفس عملا فوق الظواهر العقلية ويتقبلون التفسير الآلى للحياة والحركة . ويظهر أن ابن سينا قد تنبه إلى ضعف برهنته بدليل أنه لم يطنب فيها إلا مرة واحدة وفى مؤلف تقوم كل الدلائل على أنه كتبه فى صباه [٤] . أما فى « الشفاء » و « الاشارات » وغيرهما من مؤلفات الشيخوخة : فانه يمر بها مسرعا ويحاول أن يثبت وجود النفس معتمداً على آثارها العقلية ؛ وهذه هى البراهين التى تدل على العبقرية والابتكار .

فيلاحظ أولا أن فى الأحوال النفسية تناسقاً وانتظاماً يؤذن بقوة مهيمنة عليها ومشرفة على نظامها ، وهى برغم تنوعها

(١) ابن سينا ، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .

(٢) ابن سينا ، (رسالة فى القوى النفسانية) ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

(1) Landauer, (Die Tsychologie des Ibn Sinâ), P. 376-77.

(2) Aristote, (De l'ame), I,2.403 b 125.

(3) Aristote, (Physique), V 177,4,431 a, 30.

(4) Landauer, (arr. cité), P. 336-338.

لنديك ، (رسالة فى القوى النفسانية لابن سينا) ، ص ٩ ـ ١٢ .

وتخالفها بل تنافرها أحياناً تدور حول مركز ثابت وتتصل بمبدأ لا يتغير ، وكأنها مرتبطة برباط وثيق يضم أطرافها المتباعدة ، فنسر ونحزن ، ونحب ونكره ، وننفي ونثبت ، ونحلل ونركب ، ونحن في كل هذا صادرون عن شخصية واحدة وقوة عظمى توفق بين المختلف وتوجد المؤتلف ؛ ولو لم تكن هذه القوة لتضاربت الأحوال النفسية واختل نظامها وطغى بعضها على بعض . وما النفس من آثارها إلا بمنزلة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة ؛ كلاهما يلم الشعث ويبعث النظام والترتيب (١) .

وهنا يشير ابن سينا إلى ذلك البرهان المشهور الذي كثيراً ما ردده أنصار المذهب الروحي من علماء النفس المحدثين . ويتلخص في أن وحدة الظواهر النفسية l'unité des faits psychiques تستلزم أصلا تصدر عنه وأساساً تعتمد عليه (٢) . وضعف هذه الوحدة أو انعدامها معناه ضعف الحياة العقلية أو القضاء عليها

يدنو ابن سينا من المحدثين ، بل ومن المعاصرين بشكل أوضح من هذا في برهان آخر يصح أن نسميه برهان الاستمرار . وملخصه أن حاضرنا يحمل في طياته ماضينا ويعد لمستقبلنا ، وحياتنا الروحية هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أي فراغ أو انقطاع في سلسلتها ، بل وترتبط بحياتنا منذ أعوام مضت . ولئن كانت هذه الحياة متحركة ومتغيرة فإنما تتحرك في اتصال وتتغير في ارتباط . وليس هذا التتابع والتسلسل إلا لأن أحوال النفس فيض معين واحد ودائرة حول نقطة جذب ثابتة . يقول ابن سينا : « تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجوداً في جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك . فأنت إذن ثابت مستمر لا شك في ذلك . وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً بل هو أبداً في التحلل والانتقاص . . . ولهذا لو حبس عن الانسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه . فتعلم نفسك أن في مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة ، بل جميع عمرك . فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة (١) » . وفكرة استمرار الحياة العقلية واتصالها من الأفكار التي أثبتها حديثاً وليم جيمس وبرجسون وعداها من أخص خصائص الظواهر النفسية ومن أكبر الدلائل على وجود « الأنا » أو الشخصية . وفي رأيهما أن تيار الفكر لا سكون فيه ولا انقسام ولا انفصام ، وهو في حركة متصلة مطردة . وما أشبه الحياة العقلية بقطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقاً (٢) يقول جيمس : « من الصعب جداً أن نجد في شعور واقعي حالا نفسية مقصورة كل القصر على الحاضر بحيث لا نستكشف فيها أي شعاع من أشعة الماضي القريب » . (٣) فابن سينا ببرهانه المتقدم يسبق عصره بعدة أجيال ويدلي بآراء يعتد بها علم النفس الحديث كل الاعتداد

(يتبع)

ابراهيم مدكور

(١) ابن سينا ، (رسالة في معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ - ١٠ و (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٣٦٢ = (النجاة) ، ص ٣١٠ - ٣١٣ والاشارات ، ص ١٢١ .

(٢) Ribot, âme dans (La Grande Encyc).

(١) ابن سينا ، (رسالة في معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .

(٢) Bergson' (Evolution créatrice), P. 3.

(٣) James, (Principles of Psychology, I, P. 206.

الصوت الخافت

للأستاذ مصطفى حمدى القونى

« مهداة إلى صديقى الكاتب السويسرى جوستاف بيل »

— ١ —

ما كان يدور بخلدى قط أن يكون هذا كل نصيبى من الدنيا ، لقد طالما حلمت إبان صباى وفى فجر شبابى أنى سوف أدير كرة الأرض على أناملى ، وأنى سوف أملأ باسمى الأفواه والأسماع والقلوب . والآن وقد نقضت أيام الصبا فاذا لى دنياى أديرها فى غير جهد ، وإذا أفواه وأسماع وقلوب يملؤها اسمى ، وإذا أيد ترتفع إلى الجباه تحيينى كلما أقبلت على عملى أو أدبرت عنه . ويا ما أ كثر ما يتملقنى تلاميذى !

واليوم إذ خرجت فى الصباح إلى المدرسة بدأت تطوف برأسى هذه الخواطر : كنت فى الماضى أصور الآمال وأنتظر تحقيقها فى أيام مقبلة ، وأقبلت هذه الأيام فاذا آمالى ليس إلى تحقيقها من سبيل ، فأصابنى شىء من الرضا والقناعة وطفئت حرارة الصبى وجرأته ، وأصبح الصبى وآماله حطاما ، وإن عاودتنى أحيانا ذكراه فلا أكاد أصدق أنى كنت فى يوم الأيام

إنى أحيا الآن ولكن . . . عاريا عن الآمال والعواطف . لقد سقطت عنى عواطفى وآمالى كما تساقط عن الشجرة الذاوية أوراقها ؛ وكثيراً ما أشعر أنى كالغريق الملقى على ضفة اليم ينتظر النهاية .

لست آسف على الماضى ولا أؤمل فى المستقبل ولا أبالى كيف يكون ، ولكنى أقف الآن حيث أنا فاتحا يدى للقدر يلقى فيهما مابه يجود . . .

وإنى لأدخل حجرة الدراسة — وأنا لا أزال غارقا فى مثل هذه الخواطر — إذ تسألنى نفسى :

— أكان من الممكن أن تقنع بمثل هذا فى الماضى ؟

وإذا بى أسمع صوتا ساخراً يقول مجيباً :

— ولم لا ؟ ألم يكن يحلم بشجرة الخلد وملك لا يبلى و . . . عرش عظيم ؟

واعتليت المنصة !

ووقف التلاميذ رافعين أيديهم بالتحية ، وإذ رفعت يدى أرد تحيتهم جلسوا صامتين ، وبدأت قائلا :

— واجب الدرس السابق

ففهموا بذلك انى أريد أن يقف المقصرون ويلقوا إلى بأعذارهم عن التقصير فيما كلفتهم به ؛ ووقف واحد من التلاميذ كان من أكثرهم جداً وعناية بعمله ، ولكنه لم يلق إلى بأى عذر وإنما بقى ساكناً صامتاً كأنما لا يبالى

ونزلت من على المنصة وتقدمت اليه فى خطى ثابتة ورفعت يدى أريد أن ألطمه ، وحينئذ انبرى زميل له يقول فى صوت خافت :

— لا لا يا أستاذى ! إن أباه قد مات البارحة .

ونزلت يدى إلى جانبى وعدت إلى مكانى من جديد والحجرة يخيم عليها سكون ، وأنفاس التلاميذ كأنها محبوسة ، ونظراتهم متعلقة بى تتبعنى ، ففتحت كتاباً أمامى وقلت لهم من دون أن أرفع نظرى اليهم :

كتاب المحاسبة صفحة ٦٥ التمرين الثانى . سوف أراه مع سابقه فى الدرس القادم .

وفتحوا كتبهم فى سكون وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهوباً ورأسى يدور ، وقلبى كأن به بركاناً ثائراً

— ٢ —

ودق الجرس فخرجت من الفصل ومن المدرسة إذ كان هذا هو درسى الوحيد فى هذا اليوم ، وبدأت أجوب شوارع المدينة ذاهلا عن كل ما حولى إذ بدأت أعود بالذاكرة إلى الماضى وكأنما بدأت أعيش فيه كرة أخرى :

« هذا أنا طفلا فى المدرسة الابتدائية أسير إليها مع الشمس كل صباح وأعود منها كل أصيل . وهذا أنا أعود من المدرسة فى أصيل يوم من الأيام فلا أجد أمى : لقد انتقلت إلى الريف تبتغى فيه شفاء من مرض ألم بها . وهذا أنا أعود فى أصيل كل يوم أتنسم أخبارها ، فاذا جن الليل سهرت من أجلها أدعو لها وأتمنى لها طيب الأمانى . وهذا أنا أقوم إلى المدرسة ذات صباح فأجد رسولا من القرية جاء يستقدم أبى ، فينقلب أملى شكا طاغياً جارفاً . وهذا أنا أخرج من المدرسة فى أصيل هذا اليوم يائساً أشد اليأس ، حزيناً أشد الحزن ، أسرع الخطا ثم أبطئها ،

أسرع لأنى أريد أن أعلم ما ذا كان مصير أمى ، ثم أحس كأن شيئاً يرد من خطاى ويصدنى : لقد كان الشك يغمر نفسى

أذكر أن الشمس كانت جانحة إلى المغيب تلقى على طرق المدينة أشعة صفراء باهتة حزينة ، وإنى لا زلت إلى الآن تفيض نفسى بالكآبة كلما رأيت مغرب الشمس .

وفى أول الطريق الذى ينتهى إلى بيتنا قابلنى عمى ثم أجلسنى إلى جانبه فى دكان صغير هناك وجاء أحد الجيران يشترى بعض حاجه من الدكان ، فألقى إلى نظرة ومال برأسه إلى صاحبه كأنما يسأله عن شىء ، وهز صاحب الحانوت رأسه ومص الجار شدقيه راثياً ، وقمت من مكانى وانفجرت باكيا وجريت إلى البيت لأسترسل فى البكاء

وهناك كانت نسوة كثيرات - فى ثياب سود - حاولن عبثاً أن يكفكفن من عبراتى . وهناك كانت أختى الصغيرة مدهوشة حيرى لا تدرى ما ذا جرى . وهناك كانت أختى التى تكبر هذه - فى هدوئها وسكونها الدائمين - تسكب عبرات صامتة

وكانت ليلة . . .

— ٣ —

وأصبح الصباح فاذا الشمس مشرقة كعادتها ، وإذا بى أسير إلى المدرسة محنى القامة خافض الهامة ، أفكر فيما كان وفيما سيكون

وابتدأ الدرس الأول ، وكان درس القواعد العربية ، وإنى لأذكر تماما الشيخ عبد الحميد رجلا قصير القامة مكور الوجه قاسيا ، وأذكر أنه كان فى هذا الصباح جاداً فى إلقاء الدرس وشرح ما غمض منه على السبورة ، ولكنى لا أذكر ما هو الدرس الذى كان يلقيه ، إذ إنى نسيت - فيما نسيت - هذا الباب الذى من أمثلته (حضرموت وبختنصر) ، ولكن ماذا يهمنى من هذا ، إن ما يزال عالقاً بذهنى هو أنى انتبهت لحظة للشيخ وللدرس ، ورفعت نظرى إلى السبورة أمامى فوجدت هاتين الكلمتين (حضرموت - بختنصر)

تأملت الكلمة الأولى وقرأتها هكذا « حَضَرَ مَوْت » ، ثم بدأت أقول فى نفسى :

— ياما أسعد من لا تموت أمهاتهم ! وهؤلاء الذين يحضرون موت أمهاتهم إنهم أسعد منى حالا ، أنا الذى لم يحضر موتها ولا يدرى ماذا مصيرها

وحينئذ عن للشيخ أن يلقى إلى بسؤال — ولعله رآنى عنه وعن درسه فى شغل شاغل — ولكن كلمة واحدة لم تند عن شفتى جواباً لسؤاله

وكان أن تقدم إلى ولطمنى لطمة قاسية . . . تقبلتها صامتاً . وماذا كانت هذه إلى جانب لطمة القدر ؟

— ٤ —

وحين وصلت بذكرياتى إلى هذا الحد — وكنت قد وصلت فى سيرى إلى شارع سليمان باشا — رفعت يدى إلى خدى كأنما أتحسس بها أثر اللطمة بعد هذه السنين الطوال . ثم تراءى لى — ويدى لا تزال على خدى — أن أعبر الشارع . وإنى لأخطو أولى خطواتى إذ سمعت كأن صوتاً ينادينى :

— إبراهيم ! يا إبراهيم !

وكان الصوت خافتاً كأنه آت من بعيد ، من أعماق هاوية ، وقد خيل إلى أنه ليس غريباً عنى ، وأنى سمعته قبل الآن ، متى وأين لا أدرى ؟ وتلفت حولى واختل توازن خطاى وكادت سيارة تدهمنى ، فنظر إلى شرطى المرور كأنما يسألنى ماذا بى . فقلت له فى بساطة :

— إن اسمى ابراهيم !

فلم يبد على وجه الشرطى أنه فهم شيئاً

وطفت على شفتيه ابتسامة فيها سخرية وفيها رثاء .

مصطفى حمدى الفولى

في أفق السياسة الدولية

المسألة الاستعمارية
والصراع على الأسلاب والغنائم

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يظهر أن المسألة الاستعمارية ستغدو في القريب العاجل مسألة المسائل، وربما لعبت دوراً خطيراً في تطورات السياسة الدولية هذا العام، وقد كانت مسألة المستعمرات، خلال الأعوام الأخيرة تبدو في الأفق من آن لآخر، ولكنها كانت تتخذ صبغة نظرية؛ بيد أنها منذ غزو إيطاليا للحبشة واستيلائها عليها تتخذ صورة عملية واضحة؛ وكانت ألمانيا وإيطاليا هما اللتان تصران على إثارة هذه المسألة الشائكة كلما سنحت الفرص، أما ألمانيا فلأنها فقدت كل مستعمراتها السابقة في افريقية وفيما وراء البحار نتيجة لهزيمتها في الحرب الكبرى وتنفيذاً لنصوص معاهدة الصلح، وأما إيطاليا فلأنها رغم كونها كانت في عداد الحلفاء الظافرين ورغم استيلائها على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة، كانت ترى دائماً أنها خدعت من حلفائها، وأنهم استأثروا دونها بالغنائم الكبرى وخصوصاً في مسألة المستعمرات والأراضي الجديدة، إذ بينما حصلت فرنسا وانكلترا وبلجيكا على انتدابات وأملاك واسعة في إفريقية وآسيا، إذا بإيطاليا تحرم من كل نصيب في هذا التراث وترغم على الاكتفاء بما منح لها من الأراضي النمسوية القليلة في أوربا؛ وقد كان هذا الغبن شعار السياسة الفاشستية في الأعوام الأخيرة، وذريعة إيطاليا في وجوب إعادة النظر في معاهدات الصلح وتعديلها تعديلا يكفل استقرار الأحوال في أوربا، وحل مسألة الانتدابات والمستعمرات بصورة ترضى الأماني الايطالية، فلما لم توفق ايطاليا إلى إرضاء مطامعها بطريق المفاوضة والتفاهم، عمدت إلى طريق القوة، فنظمت اعتداءها المعروف على الحبشة رغم المعاهدات المعقودة، واستولت عليها، وحققت بذلك بعض مطامعها الاستعمارية

وأما ألمانيا فلم تفكر قبل قيام الحكومة النازية في أن تثير مسألة المستعمرات بصورة جدية، وإن لم تنقطع منذ معاهدة الصلح عن الشكوى من فداحة شروطها المرهقة، ولم تنقطع ألمانيا بالأخص لحظة عن السعي في سبيل التنصل من تبعة الحرب التي اتخذت ذريعة لسحقها وتصفيدها بمثل هذه الفروض والمغارم الفادحة، وكانت ألمانيا تثير مسألة المستعمرات من آن لآخر ولكن بصورة نظرية فقط، فلما قامت الحكومة النازية منذ أربعة أعوام كان برنامجها الواضح أن تنكر معاهدة فرساي برمتها، وأن تنكر بالأخص الأساس الذي قامت عليه وهو تبعة ألمانيا في الحرب الكبرى، وأن تحطم من نصوصها القائمة كل ما يمس السيادة الألمانية أو يغل حقوق ألمانيا وحرياتها؛ وقد فازت ألمانيا الهتلرية في هذه الأعوام القليلة بتحقيق غايتها من نقض معاهدة فرساي وتمزيقها، وفي نفس الوقت الذي كانت ألمانيا تنكر فيه تبعة الحرب وتنكر شرعية معاهدة الصلح، كانت تطالب برد مستعمراتها وتنوه بضرورة هذه المستعمرات لتقدمها الاقتصادي والاجتماعي؛ ولما نظمت إيطاليا مشروعها لغزو الحبشة كانت ألمانيا من ورائها تؤيدها بكل ما استطاعت، لأنها كانت ترى في مشروع ايطاليا دعامة لقضيتها الاستعمارية وذريعة لاثارة المسألة الاستعمارية كلها؛ ذلك أن غزو إيطاليا للحبشة لم يكن مشروعاً إيطالياً داخلياً فقط، ولكنه كان يمثل في نفس الوقت طموح الفاشستية إلى التوسع الاقتصادي، ويمثل بالأخص نزعتها العسكرية المتوثبة، وهي النزعة التي تضطرم بها ألمانيا اليوم كما تضطرم ايطاليا، وقد كان في مثل ايطاليا قدوة صالحة لألمانيا؛ وكان العام الماضي بالنسبة لألمانيا عام القضاء على معاهدة الصلح وميثاق لوكارنو، واسترداد ألمانيا لسيادتها المطلقة في مسائل التسليح، وفي منطقة الرين الحرام، أما هذا العام فسيكون بالنسبة لألمانيا عام المستعمرات والمسألة الاستعمارية، كما تدل على ذلك طوالع السياسة الألمانية الجديدة ومقدماتها

فمنذ أشهر يتحدث زعماء ألمانيا الهتلرية وتتحدث صحفها بشدة عن ضرورة استعادة ألمانيا لمستعمراتها السابقة، ويقولون إن المسألة فضلا عن كونها مسألة كرامة قومية لأن ألمانيا هي الدولة

العظمى الوحيدة التي حرمت من المستعمرات ، قد أضحت في نفس الوقت بالنسبة لألمانيا ضرورة اقتصادية واجتماعية ، لأن سكان ألمانيا يزيدون بسرعة وألمانيا لا تستطيع الحصول على المواد الأولية اللازمة لصناعاتها إلا بالشراء واستنزاف موارد ثروتها القومية ، وهي حالة تهدد كيانها الاقتصادي ؛ وقد رأينا الدكتور شاخت زعيم ألمانيا الاقتصادي يهدد أوربا بالانفجار إذا لم تحقق ألمانيا أمانيها الاستعمارية ، ورأينا الجنرال جيرنج رئيس الحكومة البروسية يصف اقتطاع الحلفاء للمستعمرات الألمانية بأنه سلب وسرقة صريحة؛ وقد كانت هذه كلها تمهيدات عنيفة للخطوة الرسمية التي تزمع ألمانيا أن تتخذها في سبيل المسألة الاستعمارية ؛ وفي ٣٠ يناير الماضي أعلن الهير هتلر زعيم الدولة الألمانية في خطابه الرسمي الذي ألقاه في مجلس الريخستاج لمناسبة الذكرى الرابعة لتولي النازي الحكم مطالب ألمانيا الصريحة في سبيل استرداد مستعمراتها وبذلك اتخذت ألمانيا في هذه المسألة موقفها الرسمي الصريح ؛ ولم يمض على تصريح الهير هتلر أيام قلائل حتى كان صدى المطالب الألمانية يتردد في دوائر باريس ولندن ، وحتى وقعت المقابلة الأولى بين الهير فون ريبنتروب السفير الألماني في لندن ، وبين اللورد هاليفاكس القائم بأعمال وزير الخارجية البريطانية ، وفيها بسط السفير الألماني وجهة نظر حكومته في مسألة المستعمرات

ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك كله موقف ألمانيا من المسألة الاسبانية وهو موقف وثيق الصلة بمطالبها ومشاريعها الاستعمارية ؛ فقد اشتركت ألمانيا مع إيطاليا والبرتغال في تدبير الثورة الاسبانية القائمة ، وعاونت زعيمها الجنرال فرانكو بالرجال والذخائر ، واعترفت بحكومته أي بحكومة برجوس الفاشستية ، ولألمانيا عدة سفن حربية في المياه الاسبانية تعاون مشاريع الثوار ؛ وقد أذيع في الأسابيع الأخيرة أن ألمانيا استطاعت أن تحصل من الجنرال فرانكو على امتيازات عظيمة لاستغلال مناجم النحاس وغيره في أنحاء كثيرة من اسبانيا ؛ وقد ذهبت ألمانيا إلى أبعد من ذلك فحاولت بالتفاهم مع الجنرال فرانكو أن تحتل مراكش الاسبانية ، وأنزلت فيها بعض قواتها فعلا ؛ ولم يك ثمة شك في الغايات الاستعمارية المباشرة أو غير المباشرة التي تعلقها ألمانيا على هذه الحركة التي ذكرتنا بحادث أغادير في سنة ١٩١٢ ، وهو الحادث الذي استغلته ألمانيا يومئذ لمصالحها الاستعمارية ؛ بيد أن ألمانيا اضطرت إزاء حزم فرنسا وما أبدته من الاستعدادات البحرية العظيمة في المياه الاسبانية وما همت به من اتخاذ الاجراءات العسكرية السريعة في مراكش وعلى حدود اسبانيا الشمالية أن تتراجع في مشروعها وأن تؤكد أنها لا ترمي إلى أية غاية استعمارية في مراكش الاسبانية أو في اسبانيا ذاتها

والآن ما هي الاحتمالات التي يمكن أن تسفر عنها حركة ألمانيا في سبيل المستعمرات ؟ ان ألمانيا تتقدم بمطالبها الى جميع الدول التي استولت على أملاكها السابقة في إفريقية وفيما وراء البحار ، وهي انكلترا وفرنسا وبلجيكا واليابان ؛ وهي تتقدم الى انكلترا بصفة خاصة لأنها وضعت يدها على اكبر قسم من هذه التركة ، ولأن موقفها من المسألة قد يغدو مفتاح الموقف كله ؛ وقد كانت السياسة البريطانية تتوقع هذه الخطوة من ألمانيا منذ أشهر ، ولهذا فقد بحثت المسألة ، وانتهت فيها على مايلوح الى خطة معينة لم تتضح قواعدها بعد . بيد أنا نستطيع أن نتبين موقف السياسة البريطانية من بعض التصريحات الرسمية والتعليقات غير الرسمية ؛ وقد أدلى السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية السابق ، منذ اكثر من عام خلال مناقشات عصبة الأمم في المسألة الحبشية باول رأى واضح لانكلترا في المسألة الاستعمارية وهو ان انكلترا مستعدة لأن تنظر في مسألة تنظيم توزيع المواد الأولية تنظيما يكفل توزيعها بصورة اكثر عدالة و رضاء للدول المحرومة منها ؛ أما عن التخلي عن المستعمرات ذاتها أو اعادة شيء منها الى ألمانيا ، فقد صرح مستر ايدن وزير الخارجية الحالي ، وكذلك مستر بلدوين رئيس الوزارة اكثر من مرة في مجلس العموم ، بان نكلترا لا تنوى التخلي عن أية مستعمرة أو منطقة يظللها العلم البريطاني ؛ بيد أنه يلوح لنا أن السياسة البريطانية قد تقدمت أخيرا خطوة أخرى في سبيل بحث المسألة الاستعمارية ، وهو أنها مع عدم استعدادها لبحثها من الوجهة الشخصية ، فانها على استعداد لبحثها من الوجهة الدولية العامة ، اعني من حيث ارتباطها بالسلام الاوربي ، ووضع تسوية عامة للمسائل الدولية والأوربية

يستقر معها السلم بصورة نهائية ؛ ومن هذه مسألة تحديد السلاح ، وتامين الحدود المختلفة ، وحل المشكلة الأسبانية وغيرها ؛ وهذا ما تاباه المانيا ، لأنها لا تقبل المساومة فى أى مسألة تتعلق بسيادتها وحرياتها فى العمل ، وتصر على أن تنظر المسألة الاستعمارية فى ذاتها ؛ وهى تجد فى انكلترا ذاتها بعض المؤيدين لنظريتها ، فقد رأينا مستر جارفن الكاتب السياسى الكبير ينصح باعادة مستعمرات ألمانيا اليها ، ويقول ان مسألة المستعمرات لا تستحق ان تكون مثارا للحرب بين الدول العظمى

ولا ريب أن المسألة لا يمكن ان تحل بمثل هذه السهولة ؛ فانكلترا لا تقبل مطلقا أن ترد لالمانيا مثلا شرق افريقية الألمانى وبذا تعيدها خصما منافسا لها فى شرق أفريقية الى جانب ايطاليا الفاشستية ، أو تعيد اليها غرب أفريقية الألمانى فتهدد بذلك سلامة امبراطوريتها فى جنوب أفريقية وفى أواسطها ، أو مستعمرة غانه الجديدة فتهدد مواصلاتها مع استراليا ؛ وقد كانت هذه أهم مستعمرات المانيا السابقة . وليست فرنسا أقل تمسكا من انكلترا بما وضعت يدها عليه من تراث المانيا السابق فى الكمرون وفى توجولاند ؛ والنظرية الفرنسية فى مسألة المستعمرات معروفة ، خلاصتها أن فرنسا لا تقبل مطلقا أن تعيد الى المانيا أية مستعمرة أو أراض تستغلها المانيا فى سبيل تدعيم قوتها ومشاريعها العسكرية ، ولا تنظر فى مسألة المستعمرات الا اذا ارتبط البحث فيها بمسألة السلامة العامة ، واسفر عن ضمانات جديدة مؤكدة تقدمها المانيا فى هذا السبيل

والخلاصة أن مسألة المستعمرات هى مسألة اليوم ، وهى طور جديد من أطوار الصراع التى تثيره ألمانيا الهتلرية فى سبيل استرداد مكانتها القديمة كاملة شاملة وفى سبيل تدعيم مشاريعها الاقتصادية والعسكرية ؛ وقد يؤدى البحث فيها إلى بحث الموقف الأوربى كله ، ويؤدى إلى تسوية دولية عامة ؛ وقد يقف البحث فيها عند الخطوات التمهيدية إذا أصرت ألمانيا على وجهات نظرها المعروفة من رفض البحث فى مسألة تحديد التسليح ، والاصرار على وجوب ابعاد روسيا عن حظيرة الدول الأوربية ، وعندئذ تتعقد المشكلة الأوربية ، ويصعب التكهن بما قد يفضى إليه هذا التعقيد من التطورات

ويجدر بنا أن نشير أخيراً إلى أن هذه الشهوة المضطرمة التى تحدو الدول الفاشستية ، وتحدو ألمانيا إلى السعى لامتلاك المستعمرات لا ترجع إلى بواعث اقتصادية واجتماعية حسبما تصورها لنا السياسة الفاشستية ، فان الاحصاءات تدل على أن المستعمرات تغدو فى أحيان كثيرة ، عبئاً اقتصادياً ، وقد لا يهاجر إليها من البيض سوى آلاف قليلة لا تؤثر فى تخفيف مشكلة السكان فى البلد الأصلى ، وأكثر ما ترجع هذه الشهوة إلى بواعث سياسية وعسكرية فوق ما ترجع إليه من الاطماع المادية والاقتصادية ؛ وهى نفس البواعث التى تحمل الدول الأخرى على الاحتفاظ بتراثها الاستعمارى الشاسع ، وهى فى الواقع معركة الغنائم والأسلاب الخالدة ؛ فاذا كانت ألمانيا قد فقدت مستعمراتها فى حرب كبرى هزمت فيها وسحقت ، فمن الصعب أن تتوقع عود هذه المستعمرات إليها غنيمة باردة ، وعليها إما أن تبذل الثمن المناسب ، وإما أن تخوض حرباً تحرز فيها النصر ، وعندئذ تستطيع أن تملى شروطها ، كما أملى عليها الظافرون شروطهم بالأمس ، وهذا ما نستبعد وقوعه فى الظروف الحاضرة

(* * *)

٢ – صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وغاب شيخُنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعضَ ساعة ثم رجع تدور عيناه في حِجَاظَيْهما وقد اكفهرّ وجهُه وعَبَس كأنما يجري فيه الدمُ الأسود لا الأحمر، وهو يكاد ينشقّ من الغيظ وبعضُه يَغلي في بعضه كالماء على النار . فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقعتا على كَنَفَيْ أنفه تَسْتَمِّان كآبةَ وجهه المشوَّه، فكان منظرهما من عينيه السوَّداوين الجاحظتين منظرَ ذبابتين وُلدتا من ذبابتين . . .

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما. فقلت له : يا أبا عثمان هاتان ذبابتان ويقال إن الذباب يحمل العدوَى

فضحك ضحكةَ المَغيظ وقال : إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة . . . فأكثر القول في هذه الجرائد حشرات من الألفاظ : منها ما يُستقذَر ، وما تنقلب له النفس ، وما فيه العدوى ، وما فيه الضرر ؛ وما بدٌّ أن يعتاد الكاتب الصحافي من الصبر على بعض القول مثلما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات في ثيابه . وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر ما يملأ مقالة . . . كان أخفَّ عليه وأهون ، وكان ذلك أصرحَ في معنى الطلب والتكليف (١) .

وكيفما دار الأمر فانّ كثيرا من كلام الصحف لو مسخه الله شيئا غير الحروف المطبعية ، لطار كله ذبابا على وجوه القراء .

قلت . ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مُتَطَلِّقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعقدا فما الذي أنكرت منه ؟

قال : « لو كان الأمر على ما يشتهيه الغريرُ والجاهلُ بعواقب الامور لبطل النظرُ وما يشحذ عليه وما يدعو اليه ، ولتعطلت الأرواحُ من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها » (١) . هناك رجل من هؤلاء المَعنيّين بالسياسة كما هي السياسة في هذا البلد . . . يريد أن يخلق في الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها ، ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلفّق لها من المنطق رُقعاً كهذه الرقع في الثوب المفتوق . ثم لا يرضى الا أن تكون بذلك ردًّا على جماعة خصومه وهي ردعليه وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرد الا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر في المستنقع الراكد

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبي عثمان في لطافة حسّه وقوة طبعه وحسن بيانه واقتداره على المعنى وضده ، كأن أبا عثمان ليس عنده ممن يحاسبون أنفسهم ولا من المميِّزين في الرأي ، ولا من المستدلّين بالدليل ، ولا من الناظرين بالحجة . وكأن أبا عثمان هذا رجلٌ حُروفي . . . كحروف المطبعة ترفع من طبقة وتوضع في طبقة وتكون على ماشئت . وأدنى حالاتها أن تمد اليها اليد فاذا هي في يدك

وأنا امرؤٌ سيدٌ في نفسي وأنا رجلُ صدق ولست كهؤلاء الذى لا يتأثّمون ولا يتذمّمون ؛ فإن خضتُ في مثل هذا انتقض طبعي وضعفت استطاعتي وتبيّن النقصُ فيما أكتب ، ونزلتُ في الجهتين فلا يطّرد لي القول على ما يرجو ولا يستوى على ما أحب . فذهبتُ أناقضُه وأردّ عليه ؛ فبُهتَ ينظر إلى ويقلب عينيه في وجهي كأن الكاتب عنده خادمُ رأيه كخادم مطبخه وطعامه هذا من هذا

ثم قال لي : يا أبا عثمان إني لأستحي أن أعنفك . وبهذا القول لم يستح أن يعنّف أبا عثمان . . . ولهممتُ والله أن أنشده قول عباس بن مرداس :

أكُلَيب ... مالك كلَّ يوم ظالما   والظلمُ أنكدُ وجهه ملعون ...

لولا أن ذكرتُ قول الآخر :

ومابين من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً   وبين تميم غيرُ حزّ الغلاصم

« حزُّ الغلاصم » وقطعُ الدراهم ، من قافية واحدة ... وقال سعيد بن أبي عُروبة : « لأن يكونَ لي نصفُ وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر – أحبّ إلى من أن أكون

(١) هذه طريقة الجاحظ في الاغراق حين يتهكم .

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ .

ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السختياني ...

وهمَّ شيخنا أن يمرَّ في الحفظ والرواية على طريقته، فقلت: وقال رئيس التحرير ... ؟

فضحك وقال: أما رئيس التحرير فيقول: إن الخلابة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة، وهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم، فكما انقلبت العصا حيّةً تسعى، وهي عصا وهي من الخشب، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوّن والمعرفة بأساليب السياسة، فتكون للتهويل وهي في ذاتها اطمئنان، وللتهمة وهي في نفسها براءة، وللجناية وهي في معناها سلامة. ولو نفخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبُها الأحمر في دخانها الأسود. قال: وإن هذا المنطق الملوّن في السياسة إنما هو إتقانُ الحيلة على أن يصدقك الناس، فان العامة وأشباه العامة لا يصدّقون الصدقَ لنفسه ولكن للغرض الذي يساق له، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس، فأذِقْهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقا وفوق الصدق، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهينَ العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب، ليحقّقوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودقّقوا . . .

ثم قال أبو عثمان: ومعنى هذا كله أن بعض دُور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للاعلان لكانت العبارة هكذا: سياسة للبيع . . . .

* * *

قلت: ياشيخنا فانك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب تقرأ فيها معان لا تكتب، ويكون في عبارتها حياء وفي ضمنها طلبُ ما يُستحَى منه . . . والحوادث عندهم على حسب الأوقات، فالأبيض أسود في الليل والأسود أبيض في النهار، ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرّج المعاني؟

قال: بلى نعم الشاهد هو وأمثاله. إنهم مصدّقون حتى في تاريخ حفر زمزم

قلت: وكيف ذلك؟

قال: شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر، فأراد هذا أن يجرح شهادته، فقال للقاضي: أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم يحجّ إلى بيت الله؟ فقال الشاهد: بلى قد حججت. قال الخصم: فاسأله أيها القاضي عن زمزم كيف هي؟ قال الشاهد: لقد حججتُ قبل أن تحفر زمزم فلم أرها . . .

قال أبو عثمان: فهذه هي طريقة بعضهم فيما يزكي به نفسه؛ ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلا في الصحف لنفي المنفي وإثبات المثبت، لا عملا يعملونه بالنفي والاثبات. ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق فلا يكون الشأن حينئذ في إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع.

والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يترخّص فيها مادام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة، ومادامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة. وقد كان العمل السياسي إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف؛ فكانت قواعدنا في الحياة مغلوطة، ومن ثم كان الخلق القوي الصحيح هو الشاذ النادر يظهر في الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة؛ وذلك هو السبب في أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر، ومن الكاذب أكثر من الصادق، ومن المماري أكثر من الصريح؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها وصارت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافياً . . . .

يا لَعبادِ الله! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعا في «محليات الجريدة»؛ ويأتيهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فماذا تتشرف «المحليات» إلا به؟ وهذا طبيعي، ولكن في طبيعة النفاق، وهذا واجب ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب. ولو أن للأديب وزنا في ميزان الأمة لكان له مثل ذلك في ميزان الصحافة، فأنت ترى أن الصحافة هنا هي صورة من عامية الشعب ليس غير ... ومن ذا الذي يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها ـ وأكثر الألقاب عندنا هي أغلاط في معنى الشرف ... ؟

ثم ضحك أبو عثمان وقال: زعموا أن ذبابة وقعت في بارجة

(أميرال) انجليزى أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درجاً من الورق وهو يخطط فيه رسما من رسوم الحرب . ونظرت فإذا هو يلقى النقطة بعد النقطة من المداد ويقول: هذه مدينة كذا، وهذا حصن كذا، وهذا ميدان كذا. قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما أيسر هذا العمل وما أخف وما أهون ! ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تلقى و ّنيمها(١) هنا وهناك وتقول: هذه مدينة، وهذا حصن...

***

والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق . . . فلما لم يسمع شيئاً قال:

لو أنني أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب)، فمهما أكذب على الناس فقد صدقت فى الاسم ، ومهما أخطىء فلن أخطىء فى وضع النفاق تحت عنوانه

قال: ثم أخط تحت اسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها:

ما هى عزة الأذلاء ؟ هى الكذب الهازل

ما هى قوة الضعفاء ؟ هى الكذب المكابر

ما هى فضيلة الكذابين ؟ هى استمرار الكذب

قال : ثم لا يحرر فى جريدتى الا «صعاليك الصحافة» من أمثال الجاحظ . ثم أكذب على أهل المال فأمجد الفقراء العاملين، وعلى رجال الشرف فأعظم العمال المساكين، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين. و . . .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير . . .

لها بقية (طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

(١) وفيم الذباب هو . . . اي هذه النقط السود التى يحدثها

وحى القلم

كثرت عندنا كتب إخواننا من فقراء الطلبة . منهم من يريد الكتاب بقيمة الاشتراك ، ومنهم من يريده بنصف الثمن ، ومنهم من يطلبه بالدعوات الصالحات.. فأعتذر للجميع بأنى لم أنفق على طبع الكتاب وإنما أنفقت عليه لجنة التأليف والترجمة والنشر . ولو كان (بولاناكي) الغنى اليونانى المشهور يعرف الأدب العربى ، لرجوته لم فاشترى واهدى إليهم .

ولكن بولاناكي لايعرف الأدب العربى ، ومثله جناكليس وماتوسيان . ورحمة الله على اغنيائنا الأموات الذين نعرفهم وزارة الأوقاف واطال الله بقاء الأحياء الذين لا اعرفهم انا ولا يعرفهم احد من المؤلفين . . .

الرافعى

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى الفونس كار

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

(٢)

زهرة السلوان

حذار من زهرة السلوان ! إنها زهرة يصيبك بهاؤها ويقتلك عبيرها . إنها لزهرة تتشح الجمال وتتكلف الابتسام ، تحدجك بلفتات ساحرة لتستهويك وتقول لك : - تعال الىّ، ففىّ الاخلاص وفىّ العزاء.

رأيت رجلا اقتطف زهرة السلوان من حقول الحياة بعد أن عرفته هائماً تتقد فى قلبه النار التى لا تنير دون أن تحرق ، فاصبح خلىّ البال يحدّق فى من كان يهواها فلا يفرح ولا يحزن، لا يلذه شىء ولا يتألم لشىء

ولكنّ السلوان لا يدخل وحده إلى القلب ، بل يجر معه رفيقه الملازم له: يجر معه الضجر والملال . ومن اقتطف زهرة السلوان يسير حزيناً مطرقاً بالأرض لانه لن يحب بعد ...

من سطا السلوان عليه فهو طريدٌ لا قرار له

من ينس مرةً فلن يحب أبدا

أرى الخلىّ يقطع السهول ويتسلق الروابى فيقف متضجراً ينصت إلى تغريد الأطيار ويسرّح الطرف فى أزهار الخمائل وجداول المروج متسائلا أمام الطبيعة العاشقة عما أفقده عشقه ، فتجيبه الطبيعة : لأنك قطفت زهرة السلوان

ويبكى هذا الطريد زماناً كان يبكى فيه إذ كان شقياً، ولكنّ قلبه لم يكن ساكناً لا حرارة فيه ولا خفوق

إن من الأمراض ما يفوق ألمُ شفائها آلامَ استفحالها

دلنى على منابت زهرة السلوان لأجتنبها ، قل لى أين تنوّر لأحوّل طريقى عنها

هى زهرةٌ صفتها اسم لها ؛ تنبت فى الأماكن الموحشة المقفرة ، وقد تنمو فى المدن بين الحركة والضجيج ، غير أن جرثومتها عالقة فى عالم الخيال فى أسرار حياة الموت وموت الحياة

هى زهرة الضجر والملال والعذاب ، زهرةُ السلوان

في الأدب المقارن

الرحـــلة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

كان الإنسان رحالة قبل أن يكون ذا وطن: كان يهجر جماعات جماعات بقاع الأرض الشحيحة، ويقصد أصقاعها الخصيبة ووديانها الكريمة، طلبا للقوت والتماسا للغنم؛ فلما استقر في الأوطان والمساكن لم يستغن في حياته عن الرحلة، بل ظل يحفزه إليها ابتغاء الرزق تارة، وحب الاستطلاع والمتعة أخرى، وشهوة الغلب والفتح طورا، ونشدان العلم آونة، وأداء مناسك دينه حينا، والفرار من الظلم أو الذل أحيانا؛ وامتازت عصور نهضاته خاصة باشتداد حبه للرحلة: فاذا ما مشت نسمة الحياة بين الأمة، وتنبهت فيها ثقتها بنفسها، وامتلأت روحها بحب العمل والاقبال على أسبابه، تطلعت دولتها إلى الخارج تبسط سلطانها عليه، وراح أفرادها في إثر جنودها يبتغون الرزق ويتوسمون وجوه المعرفة، ويهجمون على ظواهر الكون وخفاياه

تلك النهضة الروحية التي تهب ريحها بين الأمة، وتدفع أبناءها إلى الارتحال وطلب المغامرة والمجد والعلم، وابتغاء الجديد والطريف، تصحبها عادة نهضة أدبية تعبر عن هذا الروح الوثاب، وتنعكس فيها آثار تلك الرحلات وما تهز به الأذهان من روعة الكون وعظمته ورحب أقطاره، وما تحدث في العقائد الدينية والعلمية من ثورة، وما توسع به آفاق التفكير من حقائق جديدة، وما تدخل في الأدب من عناصر أجنبية تخالط عناصره المحلية، من قصص وأوصاف وألفاظ؛ فيفيد الأدب بذلك كله فائدة كبرى، وينبغ فيه من أعلام النظم والنثر أنداد من ينبغون من أفذاذ المغامرة والقتال والرحلة

عرف قدماء المصريين هذه النهضة المصحوبة بحب المغامرة والاستطلاع على عهد امبراطوريتهم في آسيا، فامتلأ أدبهم إذ ذاك بقصص الهجرة والمخاطرة والتجوال؛ وإلى أدب ذلك العهد ترجع القصة التي مازالت تتشكل على توالي الأجيال، حتى انتهت إلينا في شكل حكاية علي بابا واللصوص الأربعين. ومشت بين الأغريق روح المغامرة تلك إبان نهضتهم قبيل الحروب الفارسية وبعدها، فكان كثير من أفذاذهم وعلمائهم أمثال ليكرغ وصولون وهيرودوت وطاليس وافلاطون رحالين جابوا مهود الحضارة الشرقية، وأخذوا عن المصريين والبابليين علومهم، وكتبوا مشاهداتهم في رحلاتهم، واصفين جغرافية تلك البلاد وتاريخها، وهبت ريح المغامرة شديدة على الممالك الأوربية في عهد إحياء العلوم، فدفعتهم إلى ارتياد العالم المعروف واكتشاف العالم المجهول، وبسط حضارتهم وثقافتهم في أطراف العالمين القديم والجديد. وكان من رادة هذه النهضة مركو بولو وداجاما وكولمبس

وقد كان أكثر العرب في جاهليتهم رحالين لاينزلون أرضاً إلا ريثما يتحولون عنها، يطلبون الكلأ أو يبتغون القتال أو ينقلون التجارة؛ ومن ثم شغفوا حباً بأبلهم وجيادهم، وترنموا بوصفها، وكثرت في لغتهم أسماؤها وأسماء سيرها، وقدموا الحديث عنها بين يدي قصيدهم، وأدمنوا ذكر ارتحال أحبتهم، وتمدحوا بطول التنقل وإنضاء الرواحل وإباء المقام بأرض الذل. وكان بعض سادتهم يسفرون إلى ملوك الروم والفرس؛ وإلى تلك الرحلات المختلفة الأغراض يرجع الفضل في انتشار بعض أسباب الحضارة والرقي الفكري والكتابة الخطية بين العرب قبيل الاسلام. ولا ريب أن الرحلات التي قام بها الرسول الكريم كانت من أهم عوامل تكوينه الروحي والعقلي، حتى تهيأ له أن يضطلع برسالته العلوية؛ فالرحلة عادة من أهم العناصر المكونة لشخصية العظيم؛ كما أن الرحلات التي قام بها في الجاهلية أفذاذ القواد أمثال عمرو بن العاص إلى الممالك المجاورة كانت عظيمة النفع للجيوش العربية حين توجهت لغزو امبراطوريتي الفرس والروم. ومن تمدح العرب بالرحلة عن موطن الهوان قول الشنفرى:

ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعاش به إلا لدى ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على الذل إلا ريثما أتحول

وقول الشاعر الاسلامي أوس بن معن:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

ونهض العرب نهضتهم الحربية العظيمة فرأوا من أقطار الأرض وصنوف الخلق مالم يكن يخطر لهم ببال، وكان لذلك كل الأثر في أذهانهم وآدابهم، والتقت تحت رايتهم شتى الحضارات والأجناس، وشدت الرحال من أقصى امبراطوريتهم إلى أقصاها: وهدأت ضجة الحرب فمشى التجار حيث مشى الجنود من قبل، وسار العلماء والأدباء في شرقي الأرض ومغربها يطلبون العلم والأدب، ويلتمسون الرزق والحظوة، وأظهر العرب من حب الرحلة لشتى الأغراض مالا تبذهم فيه أمة أخرى: هاجروا جماعات فأنشأوا الأساطيل يفتحون بها سواحل البحر وجزره، وأفراداً فبثوا الدعوات وأنشأوا الدول، وسافروا تجاراً فنشروا الاسلام وحضارته في الأطراف والمجاهل التي

لم تبلغها سنابك خيول الفاتحين ، وتجشم علماؤهم متاعب الإسفار طلبا لتحقيق العلم والمشاهدة والتثبت من صحة الأحاديث الشريفة . وحرص الكثيرون على حج بيت الله الحرام مهما بعد ، وزيارة عاصمة الاسلام حيث كانت

وظهر من أعلام الرحالين الذين طافوا أنحاء الامبراطورية الاسلامية وجاوزوها إلى الأقطار الأجنبية شغفا منهم بحب الاستطلاع والتجوال ، أو ولوعا بعلم تقويم البلدان وطلبا لغرائبه ، أمثال المسعودى وابن جبير وابن بطوطة ، طوف أولئك الرحالون تدفعهم الروح التى كانت تدفع هيرودوت وديودور قديما ، والتى حثت ماجلان وكوك وأضرابهما فيما بعد ، وما تزال تدفع العلماء إلى قرع أبواب العلم المغلقة ، وطرق سبله المجهولة ، ودون أولئك الرحالون المسلمون مشاهداتهم ، فنالت كتبهم الذكر والاهتمام ، ودرست لا فى البلاد العربية وحدها ، بل فى أوربا حيث ظلت زمانا من أكبر مراجع التاريخ والجغرافيا ؛ ولم تكن رحلات كولمبس غربا وداجاما شرقا فى الحق إلا إتماما لما بدأه العرب وحذقوه من التجوال فى البحار وارتياد الأقطار . وقد انتفع كلا ذينك الكاشفين وغيرهما بآثار العرب فى الرحلة والجغرافية ، واستفادوا بخبرة الملاحين المسلمين

كان لكل هاتيك الكتب والرحلات والأخبار آثارها فى الأذهان والآداب ؛ غير أنه لما كان الأدب العربى قد نبى من حظيرته القصة وازدرى الخرافة ، وزهد فى كثير من مناحى القول ، فقد أهمل الكثير من ثمار تلك الأسفار وطرائف تلك الأخبار التى تحوى أنفس المواد لخيال الأديب وفنه ، فلم تبد آثار الرحلات والمخاطرات فى الأدب العربى الفصيح إلا ضئيلة متفرقة : ففى المقامات شىء منها ، إذ تدور المقامة حول أفاق يذرع الأرض ويهبط كل يوم بين قوم ؛ وإنما استأثر بالتحدث عن الرحلة والمخاطرة والبلاد البعيدة الأدب العامى : تجمعت أقاصيص الأمم القديمة ، وأضيفت إليها أخبار الرحلات الجديدة ، وذاع كل ذلك فى العامة ، ودون بعضه فى قصص ألف ليلة وأشباهها ، وظل بعضه غير مدون يتداول شفاها

ولم يكن الأدباء أنفسهم أقل من العلماء والتجار حبا للتجوال وجوبا للأقطار ، بل كانت الرحلة عندهم جزءا من منهاج الدرس والتأدب لا غنى عنه . فكانوا يشدون الرحال إلى العواصم ، ويشخصون إلى العلماء والأدباء المتقدمين ويقصدون دور الكتب التى أولع بانشائها الأمراء ، فاذا ما قضوا من ذلك وطرا التفتوا إلى طلب الحظوة والنوال ، فنصوا المطايا إلى أبواب الملوك والخلفاء . فاذا تمت لهم الحظوة وأضواهم الملك تحت ظله صحبوه فى قليل أو كثير من رحلاته وغزواته ، كما صحب عباس بن الأحنف الرشيد ، وابن هانىء الأندلسى المعز . فحظ أدباء العربية عامة من الرحلة لم يكن بالضئيل حتى أبو العلاء الكفيف لم يقعده عماه عن ركوب مشاق الأسفار والشخوص إلى العواصم

وقد ضرب كبير شعراء العربية المتنبى فى الرحلة بسهم وافر : قضى شطراً من شبابه فى البادية ، وجاب أطراف العالم العربى ، وقصد الأمراء ما بين فارس ومصر ، وصحب سيف الدولة فى حروبه ، ومات وهو على سفر ، وامتلأ شعره بذكر الرحلة والشغف بها والتمدح بتعوده إياها ، ووصف الخيل والابل وذكر الليل والفلاة وتفضيل النياق على الغوانى . وقد كان يحب الرحلة حباً أصيلا لا تكلف فيه ولا ادعاء للبأس والفروسية : كان دوام التأهب والنقلة يشفى من نفسه الطامحة إلى جلائل الأعمال صداها ، ويستوعب نشاط جسمه المتحفز للنضال وحمل الأعباء . لم تتهيأ له الفرصة لمجالدة الأبطال وتضريب أعناق الملوك فاعتاض عن ذلك بمجالدة قوارع الطبيعة ومجابهة شدائدها . ومن رصين أشعاره فى ذلك قوله :

ذرانى والفلاة بلا دليل ووجهى والهجير بلا لثام
فانى أستريح بذا وهــذا وأضوى بالاناخة والمقام

وقوله :

غنى عن الأوطان لا يستفزنى إلى بلد ســافرت عنه إياب

فحب الرحلة كان أمراً شائعا فى الدولة العربية ، يدعو إليه توطيد الملك وبسط السلطان وابتغاء الرزق ، ونقل التجارة ونشدان العلم والأدب وتأدية مشاعر الدين . وقد أدلى الأدباء فى ذلك بدلوهم ، وقل منهم من لم يرحل عن وطنه ولم يتغرب فى بعض الأغراض ؛ وأثر ذلك ملحوظ فى الأدب ، غير أنه ضئيل محصور فى مواطن قليلة : كوصف الرحلة إلى بلد الأمير الممدوح يقدم فى صدر المدحة ، وكالحث على الارتحال فى طلب العلم والرزق والمنفعة وصحبة الماجدين فى أشعار مشهورة سار كثير منها أمثالا : يشبه فيها المرء فى وطنه بالأسد فى غابه لا يصيد ، والماء فى مستقره يأسن ، والعود فى أرضه لا ينفق ولا يزكو ، والشمس فى دارة الحمل لا يغنى عنها شرف المحل ؛ ومن جيد ما قيل فى ذلك قول أبى تمام :

ولكننى لم أحو وفرا مجمعا ففزت به إلا بوفر مبــدد
ولم تعطنى الأيام نوما مسكنا ألذ به إلا بنــوم مشرد
وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وكثير مما قيل فى الرحلة فى هذا الباب متشابه لا يمتاز بعضه من بعض إلا فى قوة الأسلوب أو ضعفه ، وكثرة ما به من محسنات أو قلته ، وكثير منها يتفق فى تداول نفس المعانى والاستعارات ، جريا على

عادة المحافظة على تقاليد المتقدمين الأدبية ، التى اتبعها الأدباء فى كثير من فنون القول . أما الوصف المسهب لروائع المشاهدات التى تمتع بها الأديب فى سفراته ، وأثرها فى ذهنه وقلبه ، وتحويلها لنظرته إلى الحياة والكون، وما أثارته فيه من تأمل طويل ، وما نازعه من حنين عميق إلى أوطانه ، وما استرعى نظره من محاسن الطبيعة ، وراع نفسه من آثار الأقدمين وبدائع فنون الانسان ؛ أما الوصف المسهب المفصل لكل ذلك ، وتصوير أثر الرحلة فى تكوين شخصية الأديب - فهى من أهم عناصر ذلك التكوين - فقلما يبدو فى الأدب العربى ، فهذا باب آخر من أبواب الأدب الصميمة تغاضى عنه الأدب العربى ، وتركه بين أيدى كتاب التاريخ وتقويم البلدان ، وتخلى عنه للأدب العامى

فالرحلة عن الموطن فى نظر الأديب المثقف ليست فقط وسيلة لابتغاء الرزق أو اصطحاب الماجد أو قصد الملوك ، ولا هى وسيلة لطلب العلم والأدب المدون والمحفوظ فحسب ، بل هى قبل هذا وذاك وسيلة للمشاهدة واكتشاف الجديد والاطلاع على المجهول والوصول إلى البعيد . فطول مقام المرء فى الحى لا يبغضه إلى معارفه ولا يحرمه من الوفر المجمع فقط ، بل هو يضيق أفق ذهنه ويخمد قوى نفسه ويكفكف وثبات مطامحه ؛ والرحلة تثير عزيمته وتزيد نشاطه وقدرته على التفكير والانتاج ، وتطلعه على أحوال الأمم الأخرى التى تزيده بصراً بأحوال أمته ومجتمعه ونفسه ، وتشهده بدائع الطبيعة التى تتجدد حلاها فى كل خطوة ، وتتبدل محاسنها من بقعة إلى بقعة ، وتبدى من أسرار جمالها صورة فى إثر صورة ، وفى ذلك من متعة النفس وغذاء الخيال والفن ما فيه ، كما أن الوحدة التى هى نصيب الغريب فى كثير من أوقاته تعوده الوقوف عن العالم المضطرب بنجوة ، وإدمان الفكرة فيما يشاهد من أمور بنيه ، وبالكثير من هذا يعج الأدب الانجليزى

كان الانجليز كما كان العرب فى أول أمرهم رحالة دائبى التجوال والهجرة والمقاتلة ، بيد أنهم كانوا منصرفين إلى البحر مزاولين للملاحة ، فلما استوطنوا الجزيرة جنحوا إلى حياة الاستقرار رويدا رويدا ، وإن لم ينفكوا عن حبهم للبحر وركوب أثباجه ، وساهموا فى النهضة الأوربية فأولعوا بالرحلة والمغامرة والكشف فى عهد اليزابث وما يليه ، ونبغ من رحاليهم ومغامريهم أمثال رالى ودريك من رفعوا مكانة انجلترا فى البحر وما وراءه ، وتلاهم التجار ورجال الأعمال والمهاجرون أتباع المذاهب الدينية المضطهدة ، وانتشر الشعب الانجليزى شرقا وغربا ، وانتشر العلماء والأدباء فى أثر ذلك يكثرون معارفهم ويستقصون مباحثهم ، وصار من تقاليد خريجى الجامعات أن يطوفوا فى بعض أنحاء القارة الأوربية عقب إتمام دراستهم ، ليعرفوا أحوال الأمم ويزوروا خاصة إيطاليا واليونان مهدى الحضارة القديمة ، وفرنسا التى ظلت زعيمة الثقافة والمدنية فى أوربا مدى حين

وكان لأكثر أدباء الانجليزية ولع بالرحلة لا ينقضى ، وشغف بالبعيد لا يهدأ ، وغرام بالاستطلاع لا يحد ، واشتغال بمظاهر الطبيعة المتجددة ومحاسنها المتعددة ، وتطلع إلى أحوال الأمم قاصيها ودانيها حاضرها وماضيها ، ومن ثم أولعوا بالرحلة يقضون بها مآرب أرواحهم : فطوفوا فى أنحاء جزيرتهم ولا سيما منطقة البحيرات ومرتفعات اسكتلندا وجزرها ، وشخصوا إلى أصقاع أوربا المشهورة كباريس وإسبانيا وروما والبندقية وأثينا ، وجول بعضهم مثل كنجليك ولين بول فى الشرق ، وأودعوا أوصاف رحلاتهم تلك مذكراتهم أو رسائلهم إلى أصدقائهم فى الوطن أو قصصهم أو قصيدهم

ومن أدبائهم الذين طوفوا كثيراً ديفو الأفاق صاحب روبنسون كروزو . وجولد سمث الذى ضرب فى أنحاء أوربا على قدميه وهو لا يملك شروى نقير ، وكان يتكسب بالعزف على مزمار ، وسبنسر الذى قضى ردحا طويلا فى أرلندة ، وبيرون الذى جول مراراً فى أواسط أوربا وسواحل البحر الأبيض ، وانتهى به المطاف إلى اليونان حيث استشهد فى حرب الاستقلال ، وشلى الذى قصد إلى إرلندة ليقودها إلى الحرية ويحقق فيها مجتمعه الفاضل ، ثم آب إلى انجلترا وما زال فى ترداد بينها وبين أوربا إلى أواخر أيامه ، تركت هذه الرحلات آثارها واضحة فى الأدب ، فمن سفراته اتخذ بيرون مادة لقصيده ولا سيما قصيدتيه الطويلتين : « تشايلد هارولد » و « دون جوان » ، وفيهما يصف مشاهداته براً وبحراً وأثرها فى ذهنه . وكتب شلى وكيتس وبرونتج وهاردى الكثير عن آثار رومة وفنون إيطاليا عامة . وكان تنيسون فى رحلاته يدون ملاحظاته لدقائق المناظر الطبيعية كى يعود إليها وقت النظم . وهيهات أن تتتبع آثار الرحلة ومظاهر الشغف بها فى الأدب الانجليزى ، فهى مبثوثة فى كل موضع منه

لم يقنع أدباء الانجليزية بتدوين أوصاف رحلاتهم فى آدابهم تدويناً مسهبا نابضا بالحياة ، بل عمدوا - ولا سيما من قعد بهم الجد عن القيام بالرحلات الطوال التى يحلمون بها - إلى تخيل الأقطار البعيدة والمشاهد الغريبة والأمم العجيبة والحوادث الجسيمة وأودعوا كل ذلك قصصهم وأشعارهم ليشفوا غليل نفوسهم الظامئة إلى الجدة والحركة والجمال الطبيعى ، فتخيل شكسبير وقائع رواياته فى شتى بقاع الأرض والبحر ، وتخيل كولردج مشاهد « الملاح القديم » فى جهة من المحيط نائية مملوءة بالأسرار والألغاز ، وتصور ستيفنسون فى

قصصه الحوادث الجسيمة فى أقاصى الجزر والبحور ، وهى الحوادث والمناظر التى كان يقعده الداء الممض عن مباشرتها بنفسه

ولجأ الأدباء إلى تاريخ ملاحيهم وجوابيهم يقصونه ، وإلى الخرافة القديمة يستعينون بها على تصوير نزوعهم إلى الرحلة والمشاهدة فى شتى الصور ، كما استعانوا بتلك الخرافة فى الكثير من فنون الأدب.

ومن أبدع آثار ذلك قصيدة تنيسون المسماة يوليسيز باسم البطل اليونانى الذى تقص الأوديسا أخبار مغامراته ، وقد أصبحت قصيدة تنيسون تلك عنوانا فى الإنجليزية على حب الرحلة . تبدأ القصيدة ويوليسيز ملك فى جزيرة إيثاكا ، يتململ من الاقامة ، ويتذكر سالف مخاطراته ومشاهداته ووقائعه حول طروادة ، ويحن إلى معاودة حياة التجوال فى البر والبحر واكتساب المعارف بلا انقطاع ، فيعول على ترك ابنه تلماك ملكا مكانه ، ويهيب بصحبه الأقدمين الذين شيبتهم الأهوال فى صحبته ، أن يأخذوا مقاعدهم من السفينة ، ويهووا بمجاديفها على الأمواج المصطفقة ، فتنطلق بهم إلى حيث لا يعلمون ، إما إلى الردى وإما إلى جزائر الفردوس حيث يلقون البطل أخيل . يصف تنيسون كل ذلك فى أسلوبه الشعرى الممتاز ، وفى خيال معجب أخاذ ، ويرصعه بوصف مطرب لمناظر الطبيعة جملا وفرادى ، من سهول طروادة إلى أثباج اليم وهبوط حواشى الليل عليها ، إلى تلألؤ النجوم على صخور الشواطىء البعيدة ، وصعود القمر منها وئيداً .

ومن أجمل أشعار الحنين إلى الوطن ومناجاته قول جولد سميث فى « القرية المهجورة » : « قد كنت آمل دائماً - فى جميع جولاتى فى هذا العالم الرحب المملوء بالمتاعب وفى جميع أشجانى ، وقد حبانى الله نصيبى منها - أن أتوج ساعاتى الأخيرة بالقرار بين هذه المغانى البسيطة المتواضعة ؛ وكنت آمل - إذا ما تقشعت همومى - أن أعود إلى الوطن ، وفى الوطن أقضى نحبى ، كما يعود الأرنب البرى الذى تجد الكلاب والأبواق فى أثره ، إلى الجحر الذى انطلق منه أول مرة »

ومن أعذب الأشعار المترجمة عن حب الرحلة فى الأدب الحديث مقطوعة الشاعر المعاصر جرالد جورلد : « الشمس طالعة فى المشرق وفى المغرب البحر ، وسيان إن كنت فى الشرق أو فى الغرب فهذا الظمأ إلى الرحلة لن يدعنى أقر ، بل يعصف بى كالجنون ، ويحملنى على توديع موطنى ، فالبحار تدعونى ، والنجوم تدعونى ، ويا شد ما تدعونى السماء ! ولست أدرى أين ينتهى الطريق الأبيض ، أو أعلم ما تلك الجبال الزرقاء ، ولكن كفى للمرء بالشمس زميلا ، وبالنجم دليلا ، ثم لا آخر للمطاف إذا ما هتف الصوت ، إذ الأنهار تدعونى ، والطريق يدعونى ، ويا شد ما يدعونى الطائر ! ذلك هو الأفق ممتدا ، وهناك ليل نهار تعود السفن القديمة إلى أوطانها ، وتنطلق السفن الصغار ، وربما أعود أنا ، ولكن لابد أن أذهب . فان سألك سائل ما السبب ، فألق اللوم على النجوم ، والشمس ، والطريق الأبيض والسماء ! »

فحب الرحلة كان أمرا شائعا فى الأمتين ، وقد نال أدباؤهما منها بنصيب ، وظهر أثرها فى أدبيهما ؛ بيد أنها فى الأدب الانجليزى أظهر أثراً ، وأدباء الانجليز بها أشد شغفا وأكثر تغنيا ، ونظرتهم إليها أوسع أفقا من نظرة أدباء العربية : فهؤلاء كانوا ينظرون إليها نظرتهم « الاجتماعية » إلى شتى الأمور ، يرونها وسيلة من وسائل فهم المجتمع الذى يعيشون فيه ويطلبون الرزق فى مضطربه ، وذريعة من ذرائع استيعاب معارفه والتذرع بأسبابه ، على حين كانت نظرة أدباء الانجليزية إليها كنظرة الاغريق إنسانية شاملة ، وفنية حرة خالصة من كل غرض خارجى : كانوا يريدون بها المعرفة المطلقة بشؤون الكون والانسان ، وإن لم تجدهم تلك المعرفة فى معركة الحياة فتيلا ، ويريدون رى غريزة الاستطلاع الكامنة فى الانسان والتى تظل متيقظة ما دامت النفس مقبلة على الحياة ، ويبغون إرضاء نشاط جسومهم وأرواحهم والتثبت من بقاء نشاطها وحيويتها ، ويسعون لاستجلاء محاسن الطبيعة التى لا تفنى مجاليها ولا تحد آفاقها

فخرى أبو السعود

من الأدب التركي

أبنـــاء المجرم

القاضي الشاعر :

فؤاد بك خلوصي أحد رؤساء محكمة النقض والابرام في الجمهورية التركية الآن وهو مولود في طرابلس الشام ، ورجل فذ من رجال القانون وشاعر من أرق الشعراء عاطفة وأروعهم بيانا . ولهذا القاضي الشاعر ديوان باللغة التركية وقفت فيه عند قصيدة ممتعة من خالد الشعر يصف فيها تنفيذ حكم الاعدام على مجرم يترك في الحياة أرملة وأطفالا ، وقد كان الشاعر أحد قضاة المحكمة العسكرية التي حكمت باعدام المجرم في ثورة البلقان ، فاخترت تعريب هذه الأبيات لما فيها من حكمة وعواطف ، ولعرضها مشكلة كبرى من مشاكل العدل الانساني تجاه سر الحياة ف . ف

وكانت من شهر ديسمبر أواخر أيامه القارصة ، وكان آخر الليل ؛ سواد يربط على صقيع وديجور أربد ملفع بالجمود

في كل خطوة أوحال متحجرة بالجليد وزمهرير يسفع الوجوه فيلفحها كالسعير .

تجهم وجه السماء كجمرة تنطفيء ، وشرارها بقية كواكب الليل ، حكمها الملال فاطبقت على أنوارها وتراجعت إلى الافول

وساد الآفاق ارتعاش صامت ، ونعق البوم مقلقاً سكون الظلمة العميق

أمامك ووراءك حلك الظلام ، وفوق رأسك سماء متألمة واجمة ، فالى أين مسيرك يا فؤاد ، مضطربا معقود اللسان ؟ إلى أين تتجه في آخر هذا الليل ، أيها الرجل ؟

هو قاتل أنزل القضاء عليه الحكم بالرفع إلى المشنقة ، وأمام قصر الجند المجلل بالرهبة بين المعاقل الحصينة ركزت يد الانتقام بل يد العدل آلة الاعدام ، وهنالك سينزل القصاص بمن أردى أحد الجنود شهيدا

هبوا من رقادكم أيها الشجعان وأسرعوا إلى المشهد . ذلك حكم الأمة عادلا وهي تنتظر تنفيذه في المجرم المهين ! أيتها الرقة الحديدية سارعي لأطلاق رصاصك على الجاني . ولكن لا ، انما رصاص بنادقك شريف يضيع في هذا الخائن . اتركوا للحبل فريسته ، إن للموت المعلق قلادة القنب وقساوة الجلاد

أيها القضاة المقسمون بوجدانكم ! أفما أنتم الحاكمون بالاعدام إجابة لاختيار مجرد فيكم ، فعلى مَ ارتعاشكم ، وما هذا السهم النافذ الآن إلا سهمكم الذي شددتم له القوس وسددتم له المرمى . . ؟

لن أنسى ما حييت ما أرى

بين لجج الظلمات المطبقة على كل منظور ، كان نور مشعل واحد تجهمت أشعته على صفحة الأوحال لتزيد في روعة المشهد ، وكان هنالك جذعان من الأشجار مرتكزان على الأرض وفوقهما عارضة أفقية تدلى منها حبل تجسم الموت فيه وارتجف الروع برجفانه

أفما تعجب لهذا الانقلاب فيك ؟ علام حزنك واضطرابك وأنت الشاجب والقاضي ؟ لقد عددت هذا الجاني عدواً للإنسانية ورآه وجدانك مستحقاً للإعدام ، وما يجديك افتكارك الآن شيئاً . اثبت أو تردد ، اضطرب أو تجلد ، لك ما تشاء ، فمشيئتك عبث وقولك لن يسمع ، ارجع إلى الوراء وقف إلى جانب ، اهرب وتوار عن الأنظار ، إن يد الجلاد هي التي تقبض الآن على زمام الأقدار

— ما اسمك وما اسم أبيك ؟

— فلان وأبي فلان على قيد الحياة

سئل هل له أولاد ، فترجم المترجم : إن له طفلين

وشعرت إذ ذاك أن اللجة قد فغرت فاها تحت رجلي

ارتفع الأنين من صدري فاختنق ، وربط الروع بشهقة الألم على أنفاسي، وانتصبت أمامي الضحية المقربة لليتم طفلين متشحين السواد، وصرخ مزفوف المشنقة: عفوك أيها الإله ! وخمدت أنفاسه

وغشت عيني ظلمة خفقت من ورائها الأشياء . نفدت قوتي وامتنع الاستجلاء عليّ ، فتلاشى أمام ناظري القاتل والمقتول وانتصب مكانهما خيالُ عيالٍ باكية مصدوعة القلوب دامية الصدور

ذلك أب يبكي أرملة ويتيمين يجولون تائهين بالفقر والمسكنة في فيافي المستقبل الأدكن . ويلاه ما جنت هذه العيال لتقتسم الجزاء مع الجاني ؟ معضلة ، من يسبر غورها ؟ ومسئلة ، من يحل عقدتها ؟

لو أن هذا المشهد أحلام لبدده انفلاق الصباح وانعتق القلب من روعه وآلامه ، ولكن هي الحقيقة الهائلة ، ليتها كانت طيفا أو خيالا ...

فؤاد طلوسي

تعليق على مقال

أثر المــــرأة

في حياة الشيخ محمـــد عبده

للأستاذ عثمان أمين

كتب أستاذنا الكبير الشيخ مصطفى عبد الرازق بك فى مجلة « الشباب »[١] مقالا عنوانه « أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده » . ونحن مع إعجابنا بما حوى هذا المقال من طرافة ودقة بحث ، هما شأن أستاذنا فيما يسطر قلمه البارع ، نرجو أن يسمح لنا فى التعليق عليه ببعض ملاحظات

ذكر أستاذنا كيف كان قصر الأميرة نازلى فاضل[٢] مجتمعاً للعظماء وقادة الرأى فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وأشار كذلك إشارات لطيفة إلى ما اتصفت به الأميرة من صفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال وتخص الشيخ محمد عبده بمكانة تجمع بين الحب والاجلال

ونحن من جانبنا نوافق أستاذنا مصطفى بك فيما ذهب إليه من أمر تلك المودة الصادقة التى قامت بين الشيخ محمد عبده وبين الأميرة نازلى والتى كان لها ـ من غير شك ـ أثر عميق فى حياة الشيخ وفى نفسه الكبيرة الحساسة .

ولقد وقع لنا ـ أثناء بحثنا عن آثار الأستاذ الامام ـ خطاب يشهد بوجود تلك الصداقة التى ذهب اليها حضرة صاحب المقال ؛ والخطاب بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ محمد عبده تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها . وهذا نصه :

Samedi

Cher Ami

Je vous prie de venir me voir ce soir après 7 h.

Je regrette d'avoir manqué votre visite hier.

Votre amie sincère.

Nazli

وإليك ترجمة الخطاب[٣] :

السبت

صديقى العزيز :

أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة

أنا آسفة إذ فاتتنى رؤيتك أمس

صديقتك المخلصة :

نازلى

فأمر الصداقة إذن حق . واختلاف الشيخ محمد عبده إلى قصر الأميرة أمر مقرر . ولعلنا الآن لا نبالغ اذا قلنا إن عناية الشيخ محمد عبده باتقان اللغة الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة التى كانت تتكلم بالفرنسية كاحدى بنات « النبين » ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع . ونظرة إلى مجموعة الكتب الفرنسية التى وجدت بمكتبة الأستاذ الامام ، والتى تعالج منها شؤون الأدب الفرنسى بنوع خاص ، تؤيد ما ذهبنا اليه من أثر الأميرة فى ميول الاستاذ الامام واطلاعاته .

* * *

أراد أستاذنا الفاضل مصطفى بك أن يبين أثر الأميرة في حياة الشيخ محمد عبده من ناحية أخرى ، فذكر فى آخر مقاله أن الشيخ كان يجهر أول أمره بعداوته لانجلترا ويكتب فى ذلك فصولا ضافية ، ثم قال : « أما بعد اتصاله بالأميرة نازلى التى كان هواها مع انجلترا ، وكانت صديقة للورد كرومر ، فقد تلاشت عداوة انجلترا من صدر استاذنا (محمد عبده) وأصبح يجهر فى كتاباته ودروسه أن بريطانيا العظمى أحسن الدول استعماراً » .

فهل يسمح لنا فضيلة الأستاذ أن نبدى فى هذه النقطة رأياً آخر ؟

اذا كان الامام محمد عبده ، أول أمره ، قد حمل على الانجليز حملات شديدة ، فقد كان ذلك فى جريدة « العروة الوثقى » أيام اتصاله بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى . فكان يكتب وهو فى باريس ، مدفوعا بحماسة الشباب ، ومرارة المنفى بعيداً عن وطنه ، ومتأثراً بآراء استاذه الأفغانى ، وقد كانت على ما يعلم الجميع — ترمى الى الثورة سواء بتأليف الجمعيات السرية ، أو الاذاعة بالقلم واللسان . أو استعمال العنف والقتل ، وبالجملة القيام فى وجه الظالمين المستبدين سواء أكانوا شرقيين أم غربيين[١] .

---

(١) العدد الأول الصادر بتاريخ ١٧ فبراير سنة ١٩٣٦

(٢) ابنة الأمير مصطفى فاضل صاحب الخطاب المشهور المرفوع إلى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ والذى ترجمه فتحى باشا زغلول بعنوان : « من أمير إلى سلطان »

(٣) الخطاب مجلل بالسواد كتبت الأميرة على غلافه بالعربية : « عزتلو شيخ محمد عبده حضرتلرى » ، ولم ترسله إلى الامام عن طريق البريد ، بل حمله إليه رسول من

---

(١) انظر : Blunt, (Secret History, P. 489

وكان محمد عبده ، أول الأمر يعتنق أكثر آراء استاذه الأفغانى ، لـكنه بعد عودته من باريس وحبوط الدعوة وانفصاله عن استاذه ، عدل آراءه الأولى ، ومال إلى الأخذ بالاعتدال والتدريج متوخياً الاصلاح ؛ لامن طريق السياسة والثورة ، بل من طريق التعليم والتربية الاجتماعية والدينية ، وكان الأستاذ المصلح يتحدث عن هذا فيقول :

« علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين . وأن نحمل الحـكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة . وليس من اللائق أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد : يفسد المال ويفضى إلى التهلـكة » (١) .

أما عن الاصلاح الدينى فهو يقول فى رده على هانوتو : « إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم (أعنى المصلحين من المسلمين) إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، وتهذبت الأخلاق بالملكات السليمة . ولم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء فى مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين . » (٢) فلما أراد محمد عبده تطبيق وجوه الاصلاح على الأزهر بادخال العلوم الحديثة فى برامجه - وكانت أولى محاولاته الاصلاحية فى عهد الخديو توفيق - قام فى وجهه شيوخ جامدون على ما ألفوا من تقليد ، ولم يفطنوا إلى مدى إصلاحه ، وبعد ذلك نظر الشيخ عبده إلى السلطات العليا يتلمس عندها التأييد ، فوجد من الخديو عباس الثانى مناوأة له ومناصرة لخصومه ، ولقى الامام فى ذلك من الأذى كثيراً . ولسنا اليوم بحاجة إلى بيان ماكان فى خصومة الخديو للأستاذ الامام من شدة ، فذلك أمر مشهور . وحسبنا أن نشير إلى تلك الوثيقة التاريخية الخطيرة التى نشرها أخيراً احمد شفيق

(١) انظر : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٢١٧

(٢) راجع : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ص ٥٠٩ ، ومابعدها

باشا (١) والتى أرسلها الخديو إلى شفيق باشا - وكان إذ ذاك رئيساً للديوان العالى - يؤنبه فيها على السير فى جنازة الشيخ محمد عبده إزاء الدسائس المتوالية والحملات المنكرة التى كانت توجه من كل صوب إلى رجل الاصلاح ، لم يكن للأستاذ الامام بد أن يدير وجهه إلى السلطات الانجليزية (٢) فعرف « لورد كرومر » وأقنعه بوجهته فى الاصلاح ، ووجد محمد عبده المفتى من العون عند كرومر ما أخطأه عند عباس الثانى وعند شيوخ الأزهر . ومن اطلع على التقارير السنوية التى كان يقدمها لورد كرومر إلى حكومته وجد فيها ذكرا طيباً للشيخ محمد عبده وتقديراً لأعماله . وعميد الانجليز فى مصر يذكر لنا نفسه أن مناصرته محمداً عبده لم تـكن بالأمر اليسير نظرا لما كان يلقاه الامام المصلح من خصومة المحافظين له وكراهة الخديو إياه ، بل لولا كرومر مابقى محمد عبده فى منصب الافتاء طويلا (٣)

* * *

نرى مما تقدم أن الشيخ عبده لم يصادق الانجليز عفوا ولا إرضاء لهواه ، بل ألجأته إليه الظروف : كان يريد الاصلاح حقا ، ولم يكن بمقدوره أن يمضى فى إصلاحه وأهل الجمود والتقليد يقيمون فى وجهه العراقيل ، ويحيكون من حوله ضروب الدسائس ، فكان طبيعيا إذن أن يلتمس موافقة الانجليز ، وكان لهم حينذاك النفوذ الفعلى فى البلاد

على أن رضاه عن سياسة بريطانيا فى مصر لم يكن ينسيه واجبه كوطنى ، بل كان أول من حاول بث الفكرة الوطنية فى نفوس المصريين ، ولم تـكن تفوته فرصة دون أن يطالب فيها بقيام دستور للحكم العادل فى البلاد ، ووضع حد للتدخل الذى كان

(١) انظر : احمد شفيق باشا : مذكراتي فى نصف قرن . الجزء الثاني . سنة ١٩٣٦ ص ٧١ إلى ٧٤

(٢) يعلم الناس ان المحافظين الجامدين قد بلغ من شدة معارضتهم للاصلاح الدينى ان ألفوا حزبا (على رأسه الشيخ محمد الرفاعى والشيخ المنصورى) لمناوأة الشيخ محمد عبده . وحدث فى ذلك الحين أن صدرت من الاستاذ الامام فتوى تجيز للمسلم طعام اهل الكتاب والتزيى بزى الغربيين إذا اقتضته ظروف الحياة ان يعيش بين الاوربيين . وما كادت تذاع هـذه الفتوى حتى قام لها حزب المعارضين ونادى بالويل والثبور ، واخذ يشيع فى الناس ان مفتى الاسلام إنما يعمل على التأليف بين المسلمين والمسيحيين . وانشأ الحزب جريدة يومية للطعن على فتوى الامام ، وقيل فى ذلك الحين ان مدير تلك الجريدة كان مؤيدا من الجهات الرسمية مقربا من الخديو . . . إلى آخر ما هنالك حتى شاع انهم ارادوا عزل المفتى لولا ان تدخل « كرومر » آخر الامر وصرح « ان المفتى هو المفتى وانه سيظل مفتيا » . وقد سجلت جريدة « المقطم » هذه الاشاعات فى ذلك الحين

(٣) انظر : Cromer,(Modern Egypt),vol .II. P. 180.

يدعيه لأنفسهم الموظفون الانجليز كالمستشارين وغيرهم ، بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد ألعوبة فى أيديهم ، كما كان الحال فى ذلك الزمان (١)

ونحب فى ختام هذا التعليق أن ننبه إلى أننا ما قصدنا إلا أن ندلى بتعليل جديد للموقف الذى اتخذه المصلح الكبير إزاء الانجليز ؛ وما أردنا مما ذكرنا من وقائع أن نتعرض بالنقد لرأى أستاذنا الجليل مصطفى عبد الرازق بك . فنحن أول من يعترف بفضله ، ونجل فيه شدة وفائه لأستاذه الامام محمد عبده وعمله الدائم على إحياء ذكراه

ويخيل إلينا أن الأستاذ الامام قد توسم علائم هذا الاخلاص فى تلميذه الشيخ مصطفى فكتب إليه سنة ١٩٠٤ يقول : « ولقد عرفت منى على حداثة سنك ما لم يعرفه الكبار من قومك . فلله أنت ولله أبوك »

عثمان محمد خليل
مبعوث الجامعة المصرية بباريس

(١) انظر خطابى الأستاذ الامام إلى المستر « ولفرد بلنت » سنة ١٩٠٤ بشأن الحالة السياسية فى مصر وما يقترحه من حلول (ونيقتان نشرتهما مجلة « الشباب » بالعدد ٢٨ من الاستاذ حسن الشعرانى بأدنبره)

١٤ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصل الثالث

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة محمد حسن حبشى

يقول ابن رشيق القيروانى : « وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس ، وتتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة لذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج (١) »

وفى خلال هذا الزمن لم يكن هناك سوى أدب منطوق حفظته الرواية الشفهية ، ولم يشرع فى كتابته إلا بعد ذلك بزمن طويل . أما عصر الجاهلية فيشمل قرنا ونيفا من السنوات ، أعنى منذ سنة ٥٠٠ بعد الميلاد حينما نظمت أول قصيدة وصلت إلينا حتى عام هجرة النبى محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى المدينة سنة ٦٢٢ م تلك السنة التى تعد نقطة انتقال ومستهل عهد جديد فى التاريخ العربى . وكان أثر هذه المائة والعشرين سنة كبيراً وخالداً ، فقد شهدت نشأة تدهور نوع من الشعر اعتبره أغلب المسلمين الناطقين بالضاد مثالا للابداع لا يتأتى الوصول إليه ، فهو شعر قد سار مع حياة القوم جنبا إلى جنب ، ووحد بينهم قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) بزمن طويل من الناحيتين الخلقية والروحية ، وقبل أن يؤلف الرسول بين أهوائهم المتشعبة وقبل أن يجعلهم أمة تسعى من أجل غاية مشتركة ، وترمى إلى مقصد واحد . فى هذه الأيام لم يكن الشعر من الكماليات للأقليات المثقفة بل كان الوسيط المفرد فى التعبير الأدبى (٢) ، وكان لكل قبيلة شعراؤها يعبرون بحرية عما يختلج فى النفوس ويصورون أفكارهم ، وكان كلامهم الشفهى هذا ينطلق فى رحاب الصحراء أسرع من انطلاق السهم ، ويجد آذانا صاغية وقلوبا واعية عند جميع من يستمعون إليه . وفى وسط هـذا الصراع الخارجى والتفكك كان هناك مبدأ يربطهم جميعا : ذلك أن الشعر أحيا وعمم المثل الأعلى الأوهو : « المروءة » ، ولو أنها كانت تقوم على عصبية الدم القبلية ، ونرى أن روابط الدم مقدسة ؛ بيد أنها غدت رباطا غير واضح تماما بين القبائل المختلفة ، وأوجدت عرضا أو اتفاقا أساس اتحاد قومى فى الشعور

* * *

ولقد حاولت فى الصفحات التالية أن أتعقب أصول الشعر

(١) ابن رشيق فى المزهر للسيوطى (طبعة بولاق ١٢٨٢ هـ) ج ٢ ص ٢٣٦ س ٢٢ وما يتبعه ، وقد ترجم هذه الفقرة سير شارلز ليل فى مقدمته (ص ١٧) لكتابه Ancient Arabian Poetry ذلك الكتاب الرائع الذى ينبغى ان يكون فى يدى كل آخذ بدراسة هذا الموضوع الدقيق .

(٢) ذكر الاستاذ الجليل احمد امين فى كتابه ضحى الاسـلام (ص ٥) وشهر العرب بالقدرة على الشعر حتى قال احمد بن ابى دؤاد : ليس احد من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر ، طبعا ركب فيهم ، قل او اكثر . المترجم

العربى ، وأصف طبيعته وعناصره وخصائصه العامّة ، وأن ألِمَّ بأبرز شعراء الجاهلية ، ومجاميع شعر هـذه الفترة ، ثم أنتهى من ذلك إلى عرض الوسيلة التى حُفظت بها حتى وصلت إلينا

كان العرب القدماء يعدّون الشاعر كما يدل عليه اسمه ـ ذا صلة بالغيبيات ، وساحرا يؤاخى الجن والشياطين ويستمد منهم العون فيما يعرضه من مقدرة رائعة . وتتضح هذه النظرة إلى شخصيته ومكانته التى يتبوأها مما يروى عن شاب أبت حبيبته الزواج به لأنه لم يكن شاعرا أو كاهنا أو عرافا (١) ، وارتقت بعـد ذلك فكرة الشعر كفن إذ كان الشاعر الوثنى فى الجاهلية كاهن قبيلته ومرشدها فى السلم والحرب ، وبطلها فى معمعان القتال ، تستشيره إذا ما بحثت عن مرعى جديد ، ولا تضرب طنبها إلا حسب إشارته . وإذا عثر راودها المجهدون الظامئون على بئر نهلوا من مائها واغتسلوا به ، وقادهم إليه رافعين جميعا عقيرتهم بالغناء كما فعل إسرائيل من قبل : « انبثق أيها الماء ، وياهؤلاء غنوا له (٢) »

ولا بد أن تكون قد وجدت فى العصور الأولى ضروب أخرى من الشعر عدا أغانى الينابيع والحرب والتراتيل الدينية للأصنام ـ هذه الضروب كالتشبيب والرثاء ، كما كانت مواهب الشاعر تستغل أيما استغلال فى الهجاء الذى كان فى أقدم صوره « يبعث القبيلة على طلب الثأر ، ويُعد باعثا من بواعث الحرب لا يقل عن الطعن والنزال (٣) » كما يعد وعيده للعدو وتهديداته إياه دليـل خطب جسيم ، أمّا منظوماته التى لا تقل عن السهام فتكا فكان أثرها أثر اللعنات الصارمة يجريها الوحى على لسان نبيّ أو كاهن (٤) ، وكان الشعراء يتناشدون أشعارهم فى حلقات خاصة ذات طقوس وأنظمة خاصة ، كدهنهم أحد جانبي الرأس ، وإسدالهم العباءة ، وانتعالهم « خفا » واحدا من الصندل (١) . وقد أبقى الهجاء على شيء من هذه العادات المستهجنة إلى عصر متأخر ، حينما تخلى منطق الشاعر الساحرُ عن مكانته للهجاء والقـذع الذى كان يكيل به الشاعر لخصومه السب ويسمهم بميسم العار

وإن الطلائع الأولى المبهمة للشعر العربى (التى غطت عليها حيويته الساحرة المعروفة) لم تترك وراءها أثراً فى هيكل الأدب ، ولـكن المهمة قد تـكون سهلة نسبيا حينما نواجه قوماً جدّ محافظين مستمسكين بالقديم كالعرب . وقد يمكن القول بأن أقدم صورة للكلام الشعرى فى بلاد العرب كانت السجعَ أو كما ينبغى تسميته « النثر المقفى » (٢) وإنّ وصف مناهضى محمد عليه السلام إياه بأنه شاعر لما جاء به القرآن من صور له حتى بعد معرفة الموازين الشعرية واستنباطها ليظهر لنا أن هذه النظرة كانت لا تزال حتى ذلك الحين قوية ثابتة

وتطوّرَ السجع أخيرا ـ كما سنرى ـ فأصبح حلية لفظية فقط ، والميزةَ البارزة لكل فن من فنون البلاغة سواء فى الخطابة أم فى الـكتابة ، ولـكن كان له فى الأصل مرمى بعيد يتصل عن قرب بالناحية الدينية ، ويختاره الشعراء والكهنة ومن على شاكلتهم ممن كانوا يعتبرون ذوى صلات بالقوى الخفية ليفسّروا به للدهماء كل ما يحزبهم من مسائل عويصة لا يدرون لها تأويلا ولا يعرفون لها حلا . وتفرع من السجع فن آخر يجرى على وزن يعد أقدم موازين الشعر العربية ذلك هو الرجز (٣) ، وهو بحر شاذ العروض والتفاعيل يحتوى فى الغالب على تفعيلتين أو ثلاث . ومن أوضح مميزات الرجز التى تظهر صلته القوية بالسجع أن نهايات شطراته تجرى على قافية واحدة ، مع أنه فى معظم البحور لا يحدث التصريع إلا فى مطلع القصيدة . وزيادة على ما ذكرنا ، نجد ميزة أخرى للرجز ، هى أنه على الدوام يكون مرتجلا ، فينشد الرجل الأرجوزة عند المفاجآت يفسّر بها بعض مشاعر

---

(1) Freytag : Arabum Proverbia, Vol. II, P. 494.

(٢) ولا تزال مثل هذه الاغانى تسمع حتى اليوم في صحراء الشام انظر :

Emro Littmann : Neuarabische Volkspoesie (in) Abhand. der Kön. Gesellschaft[der Wissenschaften, Phil.-Hist. Klasse, (Göttingen, 1901) P. 92.

وعلى صفحة ٨١ نجد مثالا من ذلك وهو ، اطلع ياذلونا ، حيث يردد عدة مرات

(3) Goldziher : Abhand. Zur Arab. Philologie, Part I (Leyden 1896) P. 26 [Ueber die Vorgeschichte der Higâ-Poesie.]

(٤) راجع ما كتبه جولد زيهر فى المرجع السابق ص ٤٢ وما يليها

---

(١) جولد زيهر : شرحه ص ٤٦ وما يليها

(٢) رأى المؤلف فى السجع واتصاله بأولية الشعر يتفق تماما مع رأى الأستاذ الزيات (انظر كتابه تاريخ الأدب العربى) فى اولية الشعر الجاهلى (المترجم)

(٣) يرى الدكتور G. Jacob ان البحور العربية نشأت من حداء العيس لاتفاق وقع أخفافها راجع فى ذلك ص ١٧٩ وما يليها من كتابه :

Studien in Arabischen Dichtern. Heft III.

الشخصية أو عواطف أو تجارب، ومثل هذا ما ارتجله دويد بن زيد بن نهد القضاعي وهو يتهيأ للموت (١):

اليَوْمَ يُبْنَى لِدُوَيد بَيْتُـهُ لَوْ كَانَ لِلدَّهرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِدًا كَفَيْتهُ يَارُبَ نَهْبٍ صَالِحٍ حَوَيْتُهُ
وَرُبَّ عَبْلٍ خَشِنٍ لَوَيْتُهُ (٢)

ويحسن أن نأتي في هذا المقام على ذكر بعض البحور الهامة في الشعر العربي كالكامل والوافر والطويل والبسيط والخفيف وغيرها، وإيثاراً للاختصار أحيل القارىء إلى البحث الوافي عن هذا الموضوع في مقدمة سير شارلز ليبل في كتابه Ancient Arabian Poetry (ص ٤٥ – ٥٢). وكل البحور قياسية كما هو الحال في الأغريقية واللاتينية. وقد استنبط قواعد العروض من القصائد القديمة لأول مرة ونظمها ورتبها الخليل بن احمد اللغوي (٧٩١ م) الذي يقال إن الفكرة طرأت له حينما شاهد حداداً يضرب بمطرقته على السندان

ولا بد لنا الآن من أن نبحث في نظام وموضوع هذه الأشعار التي تعد أقدم مافي التراث العربي، فبين هاته النصوص البالغة حد الإتقان والروعة وبين شواهد السجع أو الرجز التافهة بون شاسع ليس من اليسير تحديده. وأول من نعرف من الشعر هؤلاء الذين تلوح في آثارهم إجادتهم لصناعتهم وإبداعهم فيها، وإن عدد الموازين التي يستعملونها وتعقدها وقوانينهم الثابتة عن الكمية، والطريقة (٣) المألوفة التي كانوا يستهلون بها قصائدهم بالرغم من الفترة التي بين كل ناظم وآخر، هذه تحتاج إلى دراسة طويلة واندماج تام في تعرف فن التعبير للغة واتساع نطاقها وطلاقتها، وهي دراسة قل أن نجد بين أيدينا اليوم ثبتا يساعدنا عليها» (٤)

«يتبع» محمد حسن حبشي

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٣٦ س ٣ — ٥

(٢) وقد ذكر في بعض المواضع الاخرى كالقاموس، ورب غيل حسن لويته، بدلا من، ورب عبل خشن لويته، المترجم

(٣) كما في قول عنترة في القرن السادس الميلادي حيث شكا ان اسلافه لم يتركوا له شيئا بقوله:

هل غادر الشعراء من متردم ام هل عرفت الدار بعد توهم

(4) Charles Lyall: Ancient Arabian Poetry, P. XVI.

اليهــــا!

للأستاذ أمجد الطرابلسي

حبيبي! إنْ بدا الفجرُ ورفَّ كثغركَ الزَّهرُ
وغنَّى الطيرُ مخموراً لحوناً كلُّها خمرُ
فـلا تأسَ على أيا منا الفرحى ولا تعتبْ
هو الدَّهرُ! ومنْ للدَّهـر إن أخطأ أو أذنبْ؟
حبيبي! إنَّ في قلبي ظلاماً مالهُ فجـرُ
ولولا طيفُكَ الخطّا رُ ما شعَّ به كوكبْ!

* * *

حبيبي! بان لي الكونُ ولمْ أكُ مدركاً بعضهْ
عرفتُ نجومهُ الحَيْرى عرفت زهورَه الغضَّه
عرفت النسمةَ الفرحى عرفت البلبلَ الشادي
عرفت الحلمَ الزاهي عرفت الأمل الحادي
نشيدَ الروح! هل كنّا سوى طيرينِ في روضَة؟
فمن ظلٍّ إلى ظلٍّ ومن وادٍ إلى وادِ...

* * *

أأيامَ الهوى البرِّ وأمسياتِه الحلوه!
جفوتِ ولم يذقْ طفلا كِ بعدُ لذاذة الصَّبوه
حبيبي! ياترى هل تسعدُ الأيامُ قلبينا؟
فنأسو الجرحَ والذكرى ونسلو الغمَّ والبينا...
ألسنا في الشبابِ الحلـو زَنْبقتَينِ في ربوه؟
فما للعاصفِ المجنو نِ يفرقُ بينَ غصنينا؟

* * *

حبيبي! إن دجا الليلُ وطافتْ بكَ أشباحُهْ
وأورى طرفك الساجي جوى البعدِ وأتراحه
فإنّي بينَ أترابي وأصحابي وإخواني
غريب مُلْهَبُ الأجفا ن واري القلب كالعاني!
حبيبي! إنَّ ليل الحبِّ جرحُ القلب مصباحُهْ
وهل يعبق نشر العو د إلا وسْطَ نيران

من زوايا النسيان

زهرات ذابلات

لشاعر معروف

أحاذر في نجواك بث شكاتي ... فأكتم ما في القلب من حسرات
ويُضرعني وجدي فألقاك شاكيا ... ولا بد للمصدور من نفثاتِ
لقد علمت أخت الملائكِ أنني ... من الهمّ والآلام في غمراتِ
وأن هواها مستبدّ بمسمعي ... وفي كل حسن مالىء نظراتي
وملء فؤادي والأمانيّ كلها ... يبرّح بي في يقظتي وسُباتي
أروم اصطبارا عن لقاك فأنثني ... إليك بملء القلب من لذعات
وألتمس السلوى لديك فانثني ... بزاد من الأشواق مستعراتِ
اذا ما دجا بالغمّ قلبي أضاءه ... كواكب من ذكراكِ والخطرات
وان جنحت للشر نفسي هديتها ... بذكرك فارتدّت الى الحسنات
وان أخلدت يوما إلى الارض ردها ... هواك الى الافلاك في لمحات
وذكرك قد يجلو عن القلب رَينه ... فيسطع فيه النور حين صلاتي
على أنني يعتادني من تذكري ... لواعج همّ مُشعَل الزفرات
هي النور وهي النار والسلم والوغى ... بقلبي ، ومنها غبطتي وشكاتي
وأمني وخوفي، وهي أنسي ووحشتي ... وظلمة أيامي وضوء حياتي
فياقمرا إن غاب عنيَ نوره ... فقلبي ليل موحِش الظلمات
ويا شمس حسن إن تغب لجوانحي ... بها شفق في وقدة الجمرات
ويا فلكا للحسن والحب دائرا ... يبارك ربّي هذه الدوّرات
فلو كان ما بيني وبينك فرقة ... لقطع بحار أو لطيّ فلاة
ولكنه الدهر المُشتّ يُقيمنا ... على قربنا في فرقة وشتات
تمنّيت أنا طائران بدوحة ... تظلّل نبعا ثرّ في الفلوات
أصوغ لك الأزمان شعرا وبهجة ... وأسمع منك الخلد في نغمات
ويُمسك هذا الدهر عن حركاته ... فلا هو بالماضي ولا هو آت

أناظمة الأشعار أنت قصيدة ... جلّتها يد الخلاّق في قسَمات
يطالعها قلب من الشعر مُجدب ... فينبت فيه الشعر أيّ نبات
وينشدها من قدّ في الصخر قلبه ... فيُنبض منه الحبُّ قلبَ صفاة
أرى وجهكِ الوضّاء شعرا مصوّرا ... تحاوله الأبيات في كلمات
كأن يراعا في يمينك إبرة (١) ... تردّد ما في الوجه من نغمات
يقولون شعر شاعر، هل عنوانه ... بديعةَ حسن تنظم الشطرات
يُحيي بهذا الشعر قلبيَ فاقبلي ... وإن كنت روضا ، هذه الزهرات
سقتها دموعي واصطلت حرّ زفرتي ... فلا تهزئي إن لم تكن نضرات

(شاعر)

(١) المراد إبرة الحاكية التي تخرج الأنغام المضمرة في الألواح

من الشاطئ

أيها البحر...

للأديب احمد فتحي مرسي

سهرت عينُه مَلالاً وسُهْدا ... هدأ الليلُ ماله ليس يَهدا
يرتمي لاغباً على بُسُط الشطّ ... م ويُولي الرمالَ ميلاً وصدّا
وكأنّ الأمواجَ كفّا بخيلٍ ... رامَ أن يرفدَ العشيّة رفدا
كلّما مدّ بالعطاء يديهِ ... غلبَ البخلُ نفسه فاستردّا
ما أحبَّ الشطآن تهذر في الليـ ... ـل وما أبهجَ الرمالَ وأندى
وكأنّ الأمواجَ أوفت عليها ... حاسبٌ جدّ في الحساب وكدّا
سطّرت كفُّه الرمال سُطوراً ... وصفا ذهنُه وراقَ وجدّا
مفكر في السكون حتّى إذا ما ... خذلته النهى ، وأخطأ عدّا
عادَ للّوح حانقاً فمحاهُ ... وأعادَ الحسابَ فيه وأبدا
سَرّح الطرف أيها العاشق الحسـ ... ـنَ . هنا الحسنُ رائع يتبدّى
وتأمّل في ذلك الغاضبِ الحا ... نق يطوي الفضا مراحا ومغدى
وكأنّ الأمواج ترغي على الشطآ ... ن شيخٌ يميل أيناً وجهدا
شيّبت صولة المقادير فوديـ ... ـه وهدّت قواه في الدهر هدّا
مدلج طال في الظلام سُراهُ ... كلما جدّ في خطاه تردّى

أيها البحرُ... ما لأمواجك الحيـ ... ـرى ترامى وترعد اليومَ رعدا
فرّقت بيننا المقاديرُ يا بحـ ... ـر وودّ الزمانُ ما لم يودّا
أترى أنت ذاكر طيب ماولّى (م) ... وما غاب في الزمان وأودى
يوم كنّا والليلُ مرخيٌ علينا ... نتساقى من أكؤس الودّ شهدا
ساعة للصفاء مرّت من الدهـ ... ـر ، وللصفو ساعة لن تردّا
كم نرجّي لو عاد ما فات منها ... وسُدًى نرتجي لما فات عودا

احمد فتحي مرسي

٣ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

ولكن ليس كل هذا ما فقدناه من أحاديث الجاحظ وآثاره فى المرح والدعابة فأن له كثيراً من الطرائف والملح التى ضاعت بين سمع الأرض وبصرها ، وطوتها الاحداث بين أجواء العصور الخالية ، فلم يبق منها إلا معالم كأنها معالم الطود قد استبد به الزمن ومحقته العواصف القاسية . وها نحن أولاء نكتب عن دعابة الجاحظ وليس بين أيدينا من مصادر البحث إلا وشل من معين ، فكل ما هنالك جملة من النوادر المبعثرة فى بطون الكتب يتلمسها الباحث بشق النفس ، مع أن الرجل قد جرد فى ذلك كتبا ورسائل تدل أسماؤها على أنها قد ضمنت ألواناً من الدعابة والمزاح ، وأترعت بفنون من النوادر والمضاحيك . وتلك الكتب على ما ذكر الجاحظ نفسه وعلى ما قال بعض الباحثين : هى كتاب الملح والطرف ، وما حرمن النوادر وبرد ، وماعاد بارده حاراً لفرط برده حتى أمتع بأكثر من امتاع الحار(١) ثم كتاب المزاح والجد ، وكتاب خصومة الحول والعور . وكتاب المضاحيك ، ورسالة فى فرط جهل الكندى يعقوب بن إسحاق(٢) أول من اشتهر فى الاسلام بالعلوم الفلسفية وما إليها . والظاهر أن الجاحظ قد ساق هذه الرسالة فى التندر على هذا الرجل والتهكم به كمثل صنيعه مع أحمد بن عبد الوهاب فى التربيع والتدوير . . . ثم أين نحن بعد هذا كله مما كتبه الجاحظ إلى إخوانه وخلطائه « من مزح وجد ، ومن افصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ، ومن ملح تضحك ، ومواعظ تبكى (٣) . . . » ، بل أين نحن مما أفرغه فى جميع كتبه ومؤلفاته من النوادر والمعابث ، وقد كانت تلك طريقته وذلك صنيعه ، وهو الذى يقول فى وصف الكتاب : « ومن لك بوعاء ملىء علماً ، وظرف حشى ظرفا ، وإناء شحن مزاحاً وجداً ، إن شئت كان أبين من سحبان وائل ، وان شئت كان أعيا من باقل ، وإن شئت ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه . . (٤) » .

فيالها من ثروة كبيرة تلك التى وفرها الجاحظ فى باب المزاح والدعابة ، ولو أن الزمن قد أبقى لنا على كل هذه الثروة لفزنا بكثير ، ولوقفنا باليقين على اتجاهات الرجل وما كان له من قدم فى مسالك هذا الفن وضروبه ؛ أما وقد خسرنا هذه الصفقة ، فليس إلا أن نسير فى البحث على قدر تلك الآثارة التى بقيت لنا من أماليح الجاحظ على الرغم من مغالبة المحن وقسوة الأحداث ، وان فيها ما قد يجدى فى البحث ، ويغنى فى الوقوف على مقاصد الرجل من دعاباته . ولعل أهم تلك المقاصد وأجلها انما هو التهكم ؛ ولعل الجاحظ لم يبرع فى ناحية من مناحى الدعابة كما برع فى تلك الناحية وتفنن ، فهو عجيب فى تهكمه ؛ تنظر إلى إحدى غمائزه فلا تدرى إلى أى جو قد نقلك الرجل ، ولا ما ثم من أشتات المعانى التى قد أوردها على ذهنك وأثارها فى نفسك ، فهو يحاور ويداور . ويصطنع أسلوبا ملفوفاً له ظهر وله بطن ، وفيه لين وفيه قسوة ، وبه طرافة وبه جفوة ؛ وقد يقف من القارئ موقف المتسائل ، ويسير معه سير المتجاهل ، فكأنه يريد أن يتهكم أيضاً بالقارئ على غفلة . وليس هذا كله إلا علامة القدرة ودليل الطبع ؛ وإنما كان الجاحظ موهوباً فى تهكمه ، ساخراً بطبعه ؛ ومن ثم لم يقف فى تهكمه عند حد الدعابة والعبث ، بل لقد كان يتناول ذلك فى كثير من نواحى فنه ، فهو أداته فى الهجاء والتقريع ، والنقد والتعريض ، والجدل والمناظرة ، وما إلى ذلك من مواضع الأخذ والرد والنظر والبحث . ألا تراه وهو ينتقد الخليل بن احمد إذ صنف فى علم لم تجتمع له أداته ، ولم يتوفر له شرطه فيقول : « والخليل بن احمد من أجل إحسانه فى النحو والعروض وضع كتابا فى الايقاع وتراكيب الأصوات وهو لم يعالج وتراً قط ، ولا مس بيده قضيباً ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين . وكتب كتاباً فى الكلام ولو جهد كل بليغ فى الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك . ولو أن ممروراً استفرغ قوى مرته فى الهذيان لم يتهيأ له مثل ذلك ، وما يتأتى مثل ذلك إلا بخذلان من الله الذى لا يبقى منه شىء . ولولا أن أسخف الكتاب ، وأهجن الرسالة ، وأخرجها من حد الجد إلى حد الهزل ، لحكيت صدر كتابه فى التوحيد ، وبعض ما وضعه فى العدل ! (١) » .

فهذا أسلوب من النقد الساخر الذى كان يصطنعه الجاحظ وإنه لأسلوب شديد الوطأة ، وإنه بالهجاء لأشبه . فهو كما ترى يطلب « أولا » مرتبة لتصنيف الخليل هى أحط مراتب الضعف والتهافت ، فيضعه دون الخطأ « يتعمده » كل « بليغ » فى الأرض « جهده » ولكن هذه المرتبة الدون لا تقنع الجاحظ ، فيعود « ثانيا » فيجعله عدلا « لهذيان » الممرور قد « استفرغ » كل مرته فى الهذيان ؛ وهذه أيضا لا تقنع الجاحظ ولا تشبع نفسه ، فنجده « أخيراً » يحكم على صنيع الرجل بأنه ضرب من الضعف لا يتأتى لطبيعة بشرية إلا « بخذلان » من الله ، ثم زاد فجعله سخفاً ومجانة لو حكاه لخرج بالقارئ من حد الجد إلى باب الهزل . وهذه مداورة من الجاحظ فيها مافيها

(١) الحيوان ج ١ (٢) الفرق بين الفرق للبغدادى
(٣) الحيوان ج ١ (٤) الحيوان ج ١

(١) ادب الجاحظ للسندوبى

من التهكم المر ، والتقريع اللاذع ، والتعريض الذى لا يطاق استهزاء وسخرية !!

ولقد كان هذا التهكم هو سلاح الجاحظ أيضا وعدته فى تقريع الحشويين وأهل التزيد ، والذين يفترون الأخبار الغثة ، ويلفقون الأحاديث الكاذبة ، ويروجون القصص التافهة ، ثم هم يحشرون ذلك فى الدين ، ويلصقونه بالأخبار النبوية الشريفة ، ويسندونه فى الرواية إلى الأصحاب الأخيار ، والرواة الثقات ، كمثل ما زعموه عن كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وتنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه فى رأسه فأنتنت ريحه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، ودخول إبليس إلى سفينة نوح فى جوف الحمار ، وما أسندوه إلى ابن عباس من أن الحجر الأسود قد نزل من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا أهل الشرك ، ثم ما تحدثوا به عن السيدة عائشة بشأن الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع فأكلتها داجن للحى حين شغلوا بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكان الجاحظ يستنكر هذه الأخبار وأشباهها ، ويحكيها فى سخر بالغ ، وتهكم قارص. وتستطيع أن تقف على ذلك وأمثاله فى كتابه « الحيوان » فى كل موضع يفرغ فيه الرجل لبعض خرافات القوم ومزاعمهم . وقد تجده لا يعنى بتفنيد هذه المزاعم ولا يهتم بأدحاضها لأنها ظاهرة السخافة والبطلان ، ثم هو يعقب عليها بكل تهكم واستهزاء ، ويختمها بالعبارة القصيرة الموجزة تأتى عليها من القواعد . فمثلا تجده يحكى أقوال « صاحب المنطق » عن التزاوج والتلاقح بين بعض الحيوانات وبعضها ، فيسترسل الجاحظ فى الحكاية ، ثم ينتهى إلى التعليق عليها فيقول : « وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وما عندنا فى معرفة ما ادعى إلا هذا القول ! » ثم يخرج بعد ذلك إلى بعض خرافات القوم التى تتعلق بالحيوانات ، ثم يتهكم بها فيقول : « ولولا أنى أحببت أن تسمع نوعاً من الكلام ! ومبلغ الرأى ، لتحدث لله تعالى شكراً على السلامة ، لما ذكرت لك شيئاً من هذا الجنس . (١) »

فبهذا الأسلوب التهكمى اللاذع كان يتذرع الجاحظ فى كثير من نواحى فنه ؛ وبهذا الأسلوب التهكمى اللاذع كان يأخذ فى دعابته ومزحه فيبلغ الغاية من إرضاء الفن ، ويسمو إلى الذروة فى إمتاع القارىء . وعجيب أمر بعض أبناء العربية الذين يشدون من الأدب إذ تراهم يطيرون بفن الكاتب الفرنسى « فولتير » فيبالغون فى سخريته ، ويمتدحونه بلذعاته ، ويثنون على عبقريته فى التهكم ، وما أحسبهم يعرفون ذلك للجاحظ أو يعترفون به ، وأنهم لو علموا لتعجبوا من جهد كاتب العربية واقتداره فى ذلك ، ولراحوا يتلسون تلك الناحية من فنه فيما له من كتب وآثار ، وهم لا شك واجدون متاعهم ولذتهم ، واقعون على أربهم ومبتغاهم ، ثم هم لا جرم سيعترفون له بما يعرفون « لفولتير » وأضرابه . وسنرى الجاحظ فى أحاديثهم وكتاباتهم منعوتا بالكاتب الساخر ، وما يجرى مجرى هذا النعت

وتعال إلى الرجل فى شىء من دعاباته الساخرة . فانك واجده على ما ذكرنا ـ حلوا مستساغا ، قويا قادراً قد تمكنت فى طبعه ملكة السخر ، وتمت له موهبة التهكم ، فاذا أخذ بعض الأشخاص بالتصوير « التهكمى » فهو يقدم لك الصورة الدقيقة الرائعة التى تثير فى نفسك كل ما يمكن من معانى الضحك والفكاهة ، والسخر والتهكم ، والعطف والاشفاق ، والنفور والبغض . ألا تراه وهو يتندر على سهل بن هرون فى بخله وشحه فيقول : « قال دعبل الشاعر : أقمنا عند سهل فلم نبرح حتى كدنا نموت جوعا . فلما اضطررناه قال : ياغلام ويلك غدنا ! قال فأتانا بقصعة بها مرق فيه لحم ديك ، وليس قبلها ولا بعدها غيرها ، لا تحز فيه سكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطلع فى القصعة وقلب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلب جميع ما فى القصعة حتى فقد الرأس من الديك ، ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال : أين الرأس ؟ قال لم أظنك تأكله . قال : ولأى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه ، ولو لم أكره ما صنعت للطيرة والفأل لكرهته ! فان الرأس رئيس ، وفيه الحواس ، ومنه يصدح الديك ؛ ولولا صوته ما أريد ؛ وفيه قرنه الذى يتبرك به ، وعينه التى يضربُ بها المثل فى الصفاء فيقال . شراب كعين الديك ؛ ودماغه عجيب لوجع الكلية ! ولم أر عظما أهش تحت الأسنان من عظم رأسه . فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نبلك أنك لا تأكله فان عندنا من يأكله . أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق . فانظر أين هو ؟ قال والله ما أدرى أين رميت به . قال : لكنى أدرى : إنك رميت به فى بطنك والله حسيبك (١) » ،

وقد تكون هذه النادرة من مرويات دعبل حقاً ، وقد تكون من اختراع الجاحظ وابتداعه ، وإنما حمله على تلفيقها ما كان بينه وبين سهل من الشنآن ، ثم عزاها لدعبل ليخلص من تبعتها ولتكون أبلغ فى المؤاخذة . ومهما يكن من شىء فان الرجل هو الذى عرضها هذا العرض وجلاها فى هذا الثوب ، فجاءت على ما ترى من السخر والتهكم والضحك والمرح ، والغمز واللمز . وانها لصورة دقيقة رائعة مهما بلغ كاتب من القدرة فى التصوير فما أحسبه سيبلغ فى وصف بخل سهل وتصوير شحه واقتاره ما بلغ الجاحظ فى هذه النادرة وهيهات !

(للبحث صلة) **محمد فهمى عبد اللطيف**

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٨٠ وما بعدها

(١) الحيوان ج ٢

الفنون

الفن المصرى

للدكتور احمد موسى

تمهيد

سل من شئت من المصريين عن تاريخ مصر الفنى وعما فى تراث الأجداد من مميزات ، وعن الناحية الجميلة الممتعة فيه ؛ بل سل أغلبية الناس فى مصر ممن زاروا أهرام سقارة ، وممن تطرف فى حب المشاهدة للآثار المصرية وسافر إلى الاقصر ، وشاهد معبد الكرنك بطيبة ووادى الملوك والملكات وتمثالى ممنون ؛ سل كل هؤلاء عما شاهدوه وعما استفادوه ، وعن ناحية الجمال فيما عاينوه ، فلا تسمع إلا تخبطا يكاد لا يختلف عما تسمعه من أمى يعيش بجوار هذه الآثار طوال أيام حياته !

ثم شاهد مدينة القاهرة - على اعتبار أنها عاصمة القطر وأهم مدينة فيه - وما فيها من ضروب الخروج على أبسط مبادىء الذوق العام ، واخطر فى أحسن شوارعها يستوقفك شذوذ الانسجام فى مبانيها وظاهرة انحطاط الذوق فى كل ما فيها ؛ ثم تفلسف قليلا لمعرفة السبب فى ذلك تجده دون شك ينحصر فى جهل الناس معنى الجمال ومعنى الذوق ومعنى الفن . وهم فى ذلك سواء ، يستوى الجاهل مع العالم ، والفقير مع الغنى ، والشيخ مع الافندى

بيوت عالية شاهقة ، وأخرى واطئة حقيرة ، كلها متجاورة . وإذا صادفت عشر عمارات كبار الواحدة ملتصقة بالأخرى ، ترى لكل منها شكلا ولكل منها منهجاً ؛ كل هذا بجانب دكاكين كتب فى أعلى مداخلها باللغة الاغريقية مرة وبالعبرية أخرى وبالأرمنية ثالثة ، ودكاكين كتب أعلى مداخلها بالفرنسية حينا وبالايطالية أو الانجليزية حينا آخر ، كما تصادفك أخرى كتب عليها بالعربية لغة الوطن ، لغة البلاد !

تأمل كل هذا . ثم عرج على آثار الأقدمين تر أنها منسجمة ، كلها من طراز واحد سمى الطراز المصرى القديم . وإذا شاهدت المساجد جميعها رأيتها من طراز سمى «الأرابسك» فيه روح الانسجام ، دون حاجة - فى هذه أو تلك - إلى دقة الفحص لمعرفة عصر الآثار ، وهل هى من مبانى الأسرات الأولى أو المتوسطة أو الأخيرة ، كما أنك لا تضطر إلى فحص نقوش مسجد أو كتاباته أو تفاصيل مبانيه لتعرف إن كان من الطراز الطولونى أو الفاطمى أو طراز المماليك البحرية أو الشراكسة ، وما ذلك إلا لأن الأول مصرى والثانى إسلامى

هذا ما سار عليه الناس أيام كانوا أميين ، أما اليوم حيث كثر المتعلمون ، وأصبحوا يلبسون كما يلبس الجنتلمان فى أوربا ، فنرى أنهم مع مزيد الأسف قد تجردوا من الذوق وبعدوا بعدا شاسعا عن المعرفة الحق ، والثقافة الكاملة المؤدية إلى حسن التقدير والاستمتاع عن طريق التذوق

لعل قائلا يقول : وماذنبنا نحن فى هذا ؟ الواقع أن الذنب راجع إلى مناهج التعليم المصرية ، لأنها تجردت من كل المشوقات للدرس ، وخلت مما يمهد لحب الفحص والنقد ، فضلا عن بعدها عن كل ماينتمى إلى الذوق العام بصلة

وفى أيامنا هذه كثر اللغط حول معارض الفن وحول التصوير والنحت وحول الموسيقى ووجوب تدريسها بالمدارس الابتدائية والثانوية ، على أنى أعتقد أن كل هذا لا يخرج عن معالجة الأعراض ، أما الأسباب فهى عند أولى الأمر فى المؤخرة

قرروا تدريس الموسيقى فى المدارس ، فهل قرروا إلى جانب ذلك تحسين الموسيقى وجعلها تخرج عن الوحدة الملائمة للرقص الخليع ورقص الخيل ؟

وهذا نفسه ينطبق على نوع التثقيف الفنى . فمنذ أن كانت لنا مدارس ابتدائية وثانوية وفن الرسم والتصوير باقيان على ماهما عليه لم يتغيرا ولم يتطوروا ، حتى كتب التاريخ العام لاترى فيها أثراً لمعنى تاريخ الفن أو تاريخ الآثار تفصيلا أو إجمالا ، مع أن التاريخ فى جوهره يعتمد عليهما إلى أبعد حد

وهذا لم يكن سبباً كافيا لمن أولى الأمر على الاهتمام بدراسة تاريخ

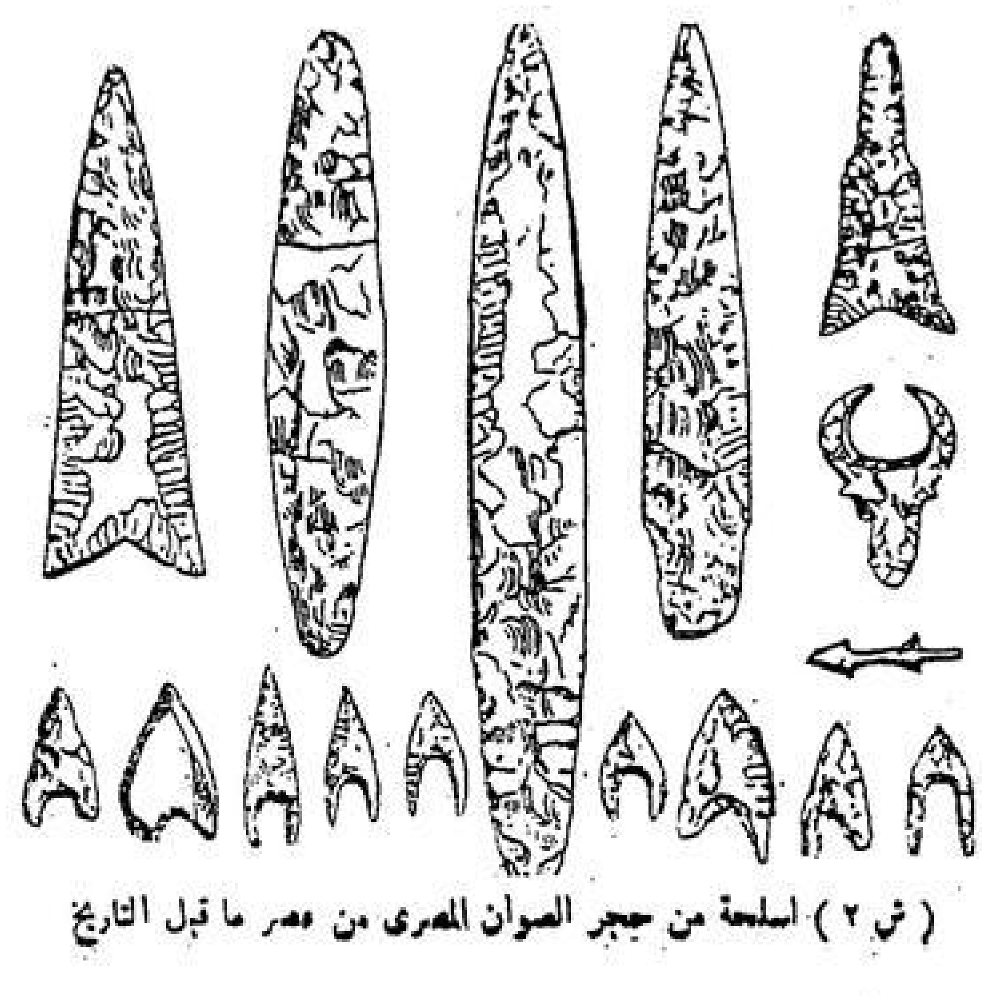


(ش ١) مقبرة مصرية من عهد ما قبل التاريخ

الفن ، ليغرسوا فى نفوس النشء شيئاً من التذوق والمعرفه الفنية

كان تاريخ الفن ضمن مواد الدراسة فى كلية الهندسة عندما كانت مدرسة عالية ، أما الآن فقد تقرر إلغاء تدريس هذه المادة للثقة التامة فى عدم نفعها أو على الأقل لعدم الحاجة إليها فى المستقبل العملى للمهندسين . أما كان الأجدر بكلية الطب الغاء مادة الصوت والضوء من علم الطبيعة ومادة التشخيص الباطنى لمن سيكون طبيباً للعيون .

وإذ كان الأمر كذلك فلم يدرس طلبة كلية الحقوق القانون الرومانى ؟ ولم يدرس طلبة كلية الآداب شيئا من الأدب الاغريقى مثلا مع أنه لاينفعهم فى مستقبل حياتهم ؟ (وهذا غير صحيح) الحق أننا نتخبط ولا نعرف إلى أى اتجاه نسير . فالثقافة العامة لن تكون كاملة مالم تشمل أيضا المعرفة بأصول الفن عن طريق دراسة تاريخه ولو إجمالا ! إن الرسم والتصوير والنحت فنون ليست من شأن الرسامين والمصورين

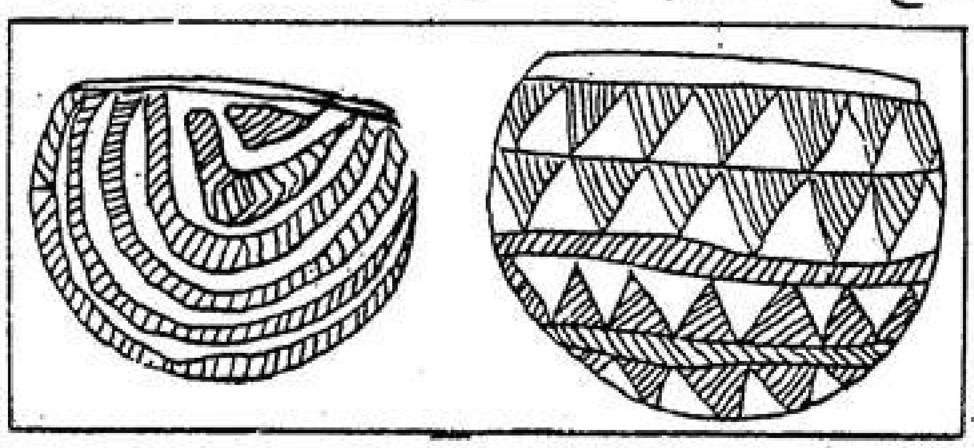


(ش ٢) اسلحة من حجر الصوان المصرى من عصر ما قبل التاريخ

والنحاتين وحدهم ، بل هى من شأن المجموع ، إذا علمنا أن الفنان لايعيش لنفسه ، كما أن خلقه الفنى لايسجله هو بشخصه ، بل أيضا بعصره الذى عاش فيه ، وبوطنه الذى شب على أرضه

وهذا مايحتم علينا أن نعنى عناية خاصة بتاريخ الفن المصرى والفن الاسلامى ، وإذا كان مقال اليوم منصبا على الفن المصرى وحده إجمالا ، فإنى أبدأ هنا بالتمهيد والتقديم له لأنى لا أقصد بالكتابة مجرد الكتابة ، ولا بنشر الصور مجرد التحلية ، وإلا فما كان أهون على من أن أتخير أجزل العبارات وأجمل المصورات ، ولكنى كما ترى أذهب بك ثمانية آلاف سنة إلى الوراء . لكى أستطيع أن أوضح فى بساطة كيف نشأ الفن المصرى وكيف نما وازدهر

والناظر إلى خريطة العالم يرى أن القطر المصرى يتوسطها تقريبا إذا أراد أن يقسم الكرة الأرضية إلى قسمين متكافئى المساحة والتكوين ، كما يرى أن وادى النيل أهم بقعة فى القارة الأفريقية ، ومن أهم مواقع الاتصال بين القارات جميعا .



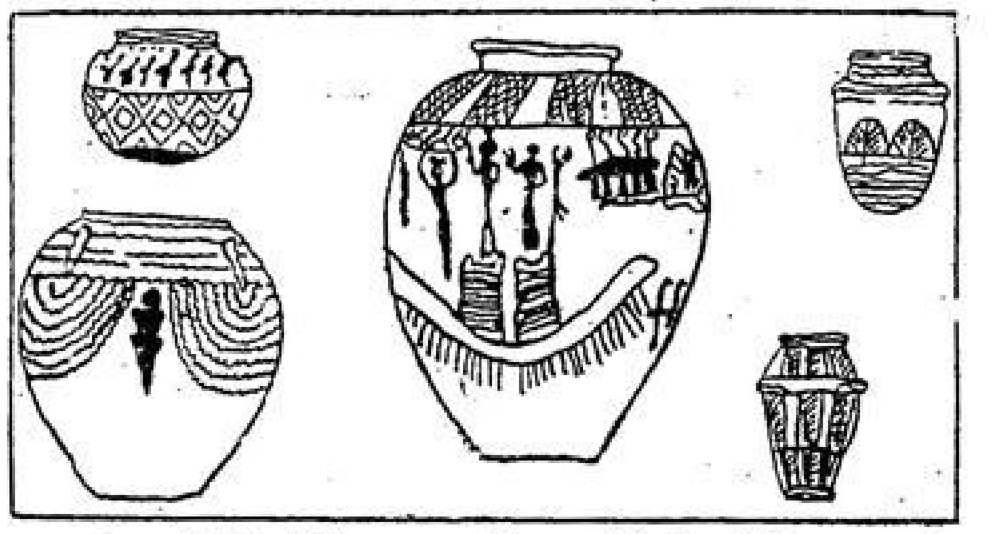
(ش ٣) آنيتان مصريتان من عصر ما قبل التاريخ

وإذا كان هيرودوت قد قال بأن مصر هبة النيل (Homeros, Od. 4,351-355.) فلأنه كان ثاقب الفكر بعيد النظر ، لتوقف حياة مصر على النيل مباشرة حيث نشأت فى واديه أقدم مدنية عرفها التاريخ ولا يزال العالم أجمع يعجب بعظمتها فى كل نواحيها

سارت هذه الحضارة والمدنية سيراً بطيئاً طبيعياً ككل الحضارات الأخرى ، مع فارق واحد هو التبكير العجيب ، وإن علمنا أنها بدأت منذ خمسة آلاف سنة ، فان ثلاثة آلاف قد سبقتها تمهد لها : أعنى منذ أصبحت أرض مصر الواقعة على ضفتى النيل صالحة للزراعة

هب إلى وادى النيل جماعات من تلك التى كانت تعيش فى الأراضى القاحلة بصحراء ليبيا ، والدارس لمقابر هؤلاء وما وجد فيها من متروكات ، يستطيع أن يقف على طرق معيشتهم وأحوالهم رغما عن قلة مابقى منها (ش ١) فيرى أنهم صنعوا العصى من سيقان الأشجار بمقابض من الحجر ، كما زينوا أوانيهم الفخارية بأشكال متناظرة الرسم ، متكررة الوضع لاتخرج عن خطوط مستقيمة متقاطعة أو منحنية أو دائرية ، رسمت داخلها خطوط أخرى أقرب إلى الماشور فى أبسط مظاهره

وبمشاهدة مجموعات الأوانى الفخارية يمكن ملاحظة التقدم التدريجى الذى طرأ عليها ؛ فترى أنها اكتسبت شكلا تكوينياً أجمل (ش ٤) وزودت برسومات صغيرة مثلت شيئاً من حياتهم ، فضلا عن التقدم الفنى الذى نستطيع ملاحظته بمقارنة الأوانى فى (ش٣) وفى (ش ٤) بعضها ببعض . والناظر إلى الآنية الوسطى من (ش٤) يرى على سطحها الدائرى رسوما ضعيفة ، تمثل أناساً يحمل أحدهم إلى أقصى اليسار وعاء على رأسه ، كما يرى على الجانب الأيمن للوعاء نفسه رسم النعام . أما الأوانى الأخرى فهى أجمل شكلا وأكثر زخرفة . مما لا يزال مستعملا الى اليوم فى مصر وبشمال افريقية ببلاد الجزائر والمغرب ، وهذا يدل على وجود صلة قديمة بهؤلاء .

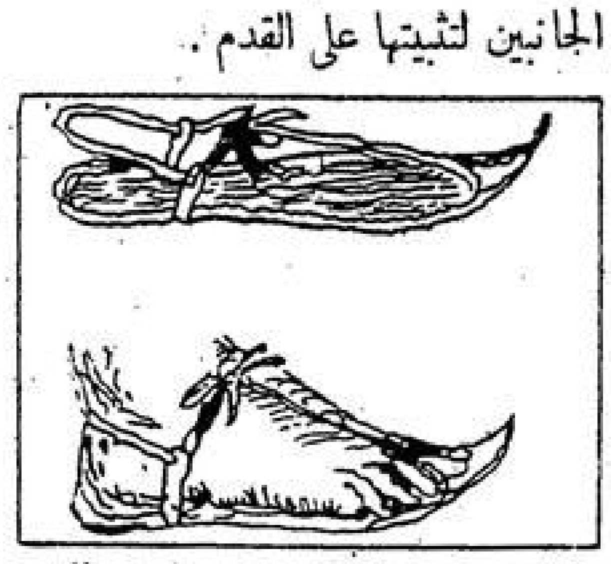


(ش ٤) اوان مصرية من عصر ما قبل التاريخ

ووجدت ببعض المقابر أمشاط للشعر ، زينوها من أعلاها بأشكال كانت غالبا تمثل رؤوس حيوانات أو طيور أو رأس إنسان .

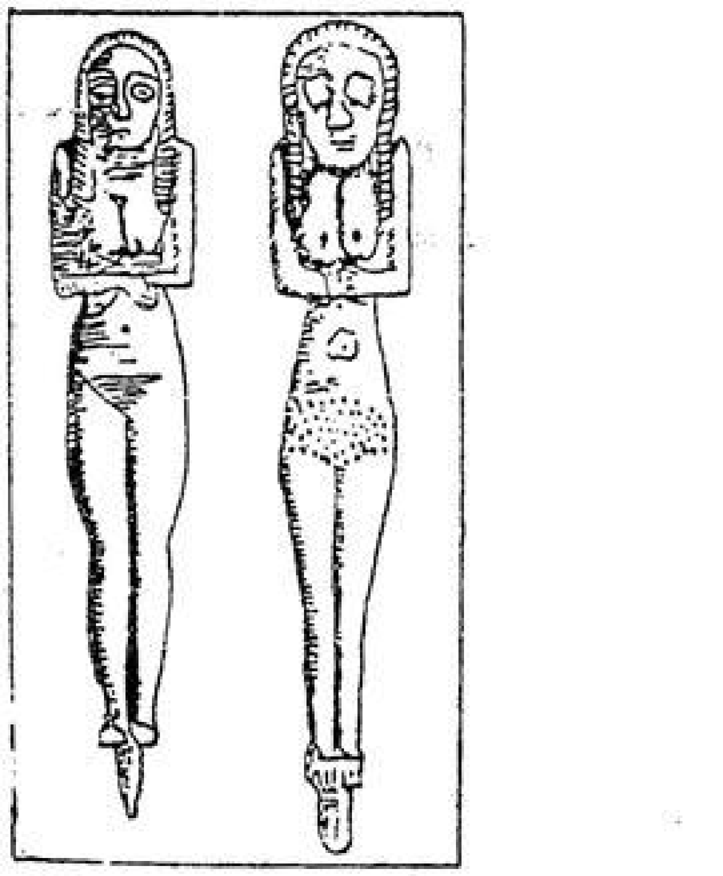
وصنعوا أسلحتهم من الصوان (ش ٢) ، وكانت هذه خطوة لا يستهان بها ، خصوصا لصلابته وصعوبة نحته وما يتطلبه ذلك من مجهود وعناية .

ولبس المصريون النعال المصنوعة من الجلد ، وجعلوا لها أربطة (ش ٥) من الجانبين لتثبيتها على القدم .



(ش ٥) نعال مصرية من عهد ما قبل التاريخ

وأخذوا يلتفتون تدريجيا إلى الزينة ، فعملوا العطور ووضعوها فى أوعية صغيرة كانت بأشكال مختلفة . واستمروا فى تقدمهم فراجت مصنوعاتهم وانتشرت تجارتهم . وازدادت صلتهم بالبلاد المجاورة وازداد عددهم . كما عرفوا المعادن واستخدموها فى مختلف أغراضهم وأدخلوها فى صناعة أدوات الزينة والتحلية ، فعملوا الأساور والعقود بعضها من الذهب ومن الحديد الأزرق الجميل الذى زادها رونقا ، وأعطانا فكرة صادقة عن ندرته وغلائه .



(ش ٦) تمثالان مصريان من عهد ما قبل التاريخ

وبدأت العقيدة الدينية تدب إلى نفوسهم نتيجة شعورهم بالوجدان والاجتماع ، وأخذت نظرتهم إلى الحياة تتطور ، فعملوا تعاويذ لجلب الرزق ولصد العين . وكانت هذه التعاويذ عبارة عن طيور وحيوانات عبدها المصريون أيام تحضرهم ، ورسموا بعضها فى مناسبات كثيرة .

واعتقد المصريون بخلود الروح ، فوضعوا فى مقابرهم كثيرا من الحبوب والتمر والتحف السابقة لعصر التاريخ .

وعند ما وصل المصريون إلى هذا المستوى ، فى وقت كان العالم فيه لا يزال فى ظلمات الجهل ، أخذوا يشعرون بحاجتهم إلى القانون وإلى الاتحاد لصد هجمات البلدان المجاورة ، فقام فيهم الملك مينا موحدا البلاد ، جاعلا من مصر السفلى والعليا مملكة واحدة ابتدأ بتأسيسها ، فبدأ بذلك عصر مصر التاريخى أو عصر الأسرات .

(يتبع) **احمد موسى**

القصص

على كف القدر

للأديب السيد محمد زيادة

الحياة لغز معقد أعجب ما فيه أن يشقى من لا يستحق الشقاء وأن يهنأ من لا يستحق الهناء؛ ولكن رحمة الله قريب . . .

التف الولدان والبنتان حول أمهم فى أول الليل يسألون عن العشاء ، وراحت هى تعللهم وتشاغلهم بما يلذ لهم من الحديث ليغمى على طفولتهم فيناموا . .

ثم ما لبثت صغرى البنتين أن استلقت على حجر أمها نصفها يقظان ونصفها هاجع ، فحدبت عليها الأم ومالت تقبلها وتهز أعطافها برفق لتصرف عنها بقية يقظة وتسرب إليها بقية نعاس .

ثم نامت الفتاة طاوية تشيع على وجنتيها حمرة صفراء فيها معنى الطوى ، وترقد بين أجفانها نظرة موهونة فيها معنى الألم ، وتجول على شفتيها ابتسامة حزينة فيها معنى اليأس ! !

ورأتها أمها نائمة لا يستقر على ملامحها الكرى ، فحدقت فى وجهها وأطالت التحديق . . . فأى حزن أبلغ من حزن أم فقيرة تنظر إلى وجه ابنتها النائمة فترى الجوع والفقر يتصالحان لتذبل فى صلحهما زهرة ناضرة ؟ .

وسقطت من عين الأم على خد الفتاة قطرة من الدمع . . . ثم نهنهت المسكينة دمعها ، ورفعت رأسها إلى أعلى وقالت : يارب !

ونظر الولد الأصغر إلى أمه بعد إذ تنهدت وقال : هاهى ذى قد نامت فلم يبق إلا نحن الثلاثة . . . أما لديك طعام لنا ؟

قال الولد الأكبر : إذا كان لديها طعام فماذا كان يمنعها أن تقدمه ؟ . انتظر يا مجنون حتى يعود أبونا فأنا لا نملك الطعام أو ثمن الطعام إلا بعد عودته .

قال الولد الأصغر لأمه : وهل يحضر معه ما وعدنى وهو خارج فى الصباح بإحضاره يا أماه ؟ أم يخلف ما وعد كما فعل بالأمس وكما يفعل كل يوم ؟ .

قالت الأم : سيأتيك بكل ما تطلب يا ولدى والله معينه .

قالت البنت الكبرى : إنه تأخر الليلة عن موعده يا أماه .

قال الولد الأكبر : أنا أعرف أنه تأخر ليملأ جيبه بالمال ، وسوف ترون كيف يوسع علينا الليلة فتشبع بطوننا بكل ما نشتهيه .

وما هى إلا هنيهة حتى أقبل الرجل يتحامل على نفسه فيتقدم به شىء ويتأخر به شىء . . . يتقدم به الحنين إلى أولاده وتتأخر به الحسرة عليهم . . . فهو بين الماشى والواقف ، يحمل على كتفه صندوقه وفيه تجارته يجوب بها الطرقات .

ورآه الأولاد مقبلا فجنوا جنون الفرح ، واستيقظت النائمة على أصواتهم ، ونهضوا جميعاً يهللون ويصيحون : جاءأبونا . جاء أبونا . . . أما هو فقد لقيهم بوجه كاسف مغبر ، فكان كمن توقع مصيبة فوافته مصيبتان ، وأسلم لهم يديه وجسمه يتعلقون به ويتواثبون حوله ، وأبقى لنفسه رأسه بما حوى من فكر وما حمل من هم .

أما زوجته فقد علقت بصرها به فعرفت ما به ، وبادلته نظرات مستصرخة بنظرات صارخة ثم تنفست وقالت : يارب .

ووضع الرجل صندوقه وجلس إلى جوارها مكبكباً مخذولا ؛ والتأم الاولاد حولها وقال الولد الاصغر : هل نكثت بوعدك يا أبى كعادتك ؟ . قال الرجل : لا يابنى . سأفى إن شاء الله

قال الولد : ومتى يشاء الله ؟ كل يوم تقول هذا ولا تفعل شيئاً !!

قالت البنت الصغرى : لقد تأخرت يا أبى للآن ولم نأكل ، ألم تدر أننى جائعة ؟ إنى سأخاصمك ولكن بعد العشاء

فضحك الرجل ضحكة باكية ثم قدم لزوجه ما فى جيبه وقال : حذى هذا فهو كل ما رزقته فى مطافى . . .

وما الذى كان فى جيبه ؟ .

قرش ونصف قرش جناها الرجل من سعيه طول يومه ، فهل تكفى لقوت أسرة لا أدم عندها ولا خبز ؟ يا رحمة الله بالمساكين ! يارحمة الله ! أى فقر هذا ؟

أطفال أبرياء يرهقهم الجوع وليس لديهم مما يحمله غير الصياح والتوجع ، وليس حولهم مما يدفعه غير تسلية أمهم ووعودها وأم حسرى ممزقة الكبد ، ترى أولادها وهم فتات قلبها نوحاً يتكلم الجوع بألسنتهم . ويتكلم ألم الجوع بعيونهم ، وهى حيرى

تسمع كلامهم بأذنها وتحس آلامهم في قلبها . ولكنها لا تملك لهم شيئاً فلا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فهي محتوم عليها أن تظل صابرة على ما تسمع وما ترى . وأن تنسى نفسها بأولادها فتحمل كربتهم على كربتها ، وأن تنظر دامعة ما يفلت من بين يدى القدر إلى يدى زوجها من رزقه الحبيس .

ووالد بائس يعلم أن وراءه أربعة أطفال يمرغهم الجوع بين أحضان أمهم البرّة فلا يغنيهم حنانها عن الطعام ... ويعلم أنهم يحيون في غير الحياة ، وينتظرون عودة الحياة في عودته !! فيندلق في الطرقات ناحية فناحية يتبع شيئاً ممنوعاً ، هو رزقه ، ويصل شيئاً مقطوعاً هو حظه ، ويقطع شيئاً موصولا هو فقره ...

ولكنه لا يبلغ بسعيه وجهاده غير ما يقدر له ... وماذا يقدر للفقير غير الفقر ؟ ياويلتا !! ياويلتا لهم !!

وجعل الرجل والمرأة يتشاوران ، وراح كل من الأولاد يطلب شيئاً بينما لا يكفي القرش ونصف القرش لشراء شيء ...

قالت البنت الصغرى : أريد أن آكل سمكا فأنا أشتهيه من شهر وكلما طابته تؤخرونه إلى يوم بعد كل يوم . وقد رأيت بنت الجيران تأكل منه بالأمس ، ولولا أنني خفت أن تضربوني لشحذت منها ؛ وكانت هي تنظر إلى مختالة ونظراتها تقول لي ماتقول ، وكنت أنا أنظر إليها حزينة ونظراتي تقول لها ماتقول أيضا

فتبللت أجفان الأم وصرخ قلبها صرخة وقالت : عزيز على يا ابنتي — فاصبرى لعل الله يرحمنا

قال الولد الأصغر : وأنا أريد أن آكل أرزا ...

قالت الأم : آه ياولدى !! غداً أعمل لك الأرز

قال الولد : يا طالما تقولون غداً وما يأتي الغد بشيء ... أريد أن آكل الآن أرزاً ، وإلا فسأبكى ...

وجهش الولد إلى أمه المسكينة ، ثم بكى فبكت له وضمته إلى صدرها وعيناها مدرار تمسح من قلبها الدموع

وبكت البنت الأخرى فبكى الولد الآخر ...

أما الرجل . فكان مطرقا واجما لا يطيق أن يرى موقف البكاء في منظر الفقر بين زوجه وأولاده ؛ وكان تائها في دنياه يرى بخياله ماضيه الرخى الناعم فيهز رأسه ، ويرى بعينه حاضره الشقى المظلم فيزفر ، ويرى بفكره مستقبله الحالك المقطب فيرتعد

ثم ضاقت به نفسه فخرج على حكمة الرجولة وهوى من ثبات الايمان إلى خور اليأس ... وبكى ... وبكى بكاء رجل ، وما أمر بكاء الرجال !!

ثم رفع المسكين رأسه وقال : يارب ماذنبى وماذنب صغارى؟ ماذا يطعم هؤلاء الليلة وماذا يطعمون كل ليلة؟

قالت الزوجة : خفف عنك حملك ... إن الله لم يخلقنا لينسانا ... إنه يرانا ... إنه قادر رحيم ...

ثم قالت : سأخرج الآن لأشترى بالقرش خبزا وبالنصف قرش جبنا ليأكل هؤلاء . وغداً يفعل الله بنا ما يريد

ورضى الأولاد أن يمسكوا رمقهم بالجبن ، فشيء خير من لاشيء ... وخرجوا تصحبهم أمهم لتهون عليهم في الطريق مشقة انتظار الطعام ، ومشوا حولها يتناقشون ... يقول هذا : أنا الذى أحمل الخبز ، وتقول هذه : لا .. أنا التى أحمله ... ويقول هذا : أنا الذى أصون الجبن ، وتقول هذه : لا .. أنا التى أصونه ... ثم يقول هذا : أنا الذى أجلس إلى جنب أمى وقت الأكل ، وتقول هذه : لا ... أنا التى أجلس إلى جنبها ...

حتى إذا كانوا على بعد خطوات من البدال كان النقاش بينهم على أشده ، فعثرت أمهم بأحدهم فكادت تسقط على الأرض وسقطت النقود من يدها ... : فقفزت لترد القضاء ولكن القضاء أسبق !! حمل القرش والنصف إلى الطين ثم إلى الخفاء

يالله !! يالله !! ماهذه الدنيا ؟ إنها لا ترحم ولا تعرف اللين في القسوة . نكبت هذه الأسرة بالفقر ثم لم يرضها هذا حتى نكبتها بفقر الفقر ! يا أيها الأغنياء ... كيف يحل لكم عيشكم الرغيد وفي الحياة مثل هذه الأسرة ؟

ومدت المسكينة يدها في الطين تبحث فلم تجد شيئا ... وجعلت تبحث فلا تجد ... ثم وقفت ذاهلة وعيناها تذرفان ماسال من حشاها

ثم جمعت أولادها الباكين وعادت ... ولكن كيف عادت ؟

عادت محطومة يستغلق على إحساسها كل ما حولها ... فلا تسمع شيئا مما ترى ، ولا ترى شيئا مما تسمع ؛ وكأنما انفضت من حولها الدنيا فلم يبق إلا هي وأولادها ، ومابينها وبينهم إلا أنين وأنين ...

وإنهم ليقتحمون ظلمة الطريق بظلمة اليأس إذ أفلت الولد الصغير من بينهم فتأخر ...

ثم صاح وهو يجرى ليلحقهم : أماه ... لقد وجدت قرشا !

وأخذت الأم مافي يده فاذا في يدها قطعة فضية بعشرين قرشاً ... ياأرحم الراحمين ... ودارت الأم ، ودار أولادها معها ومضوا ... ومضوا إلى السوق

طنطا — السيد محمد زياده

البريد الأدبي

التعاون الأدبي بين الشرق والغرب

ليس من ريب فى أننا ندين بكثير من تكويننا العقلى الحديث للغرب ولآثار الثقافة والآداب الغربية ، فنحن ننقل عنها وننتفع بها منذ أجيال ، ولها أكبر حظ من قراءتنا واطلاعنا . بيد أننا نستطيع من جهة أخرى أن نقول أن الأمم الشرقية بدأت تكوينها الأدبى الحديث ، وأخذت تسير فى طريق الانتاج المستقل وأخذ الغرب من جانبه يعنى بآدابنا كما نعنى بآدابه وإن كانت هذه العناية لاتزال محدودة . ولقد ترجمت إلى كثير من اللغات الأوربية بعض الآثار الشرقية الرائعة المحدثة ، وكانت الهند أوفر الأمم الشرقية حظاً من ذلك ؛ فآثار تاجور مثلا تعرف فى الغرب كما تعرف آثار أعظم كتابه العالميين ، وقد كانت الآداب العربية المحدثة أقل حظاً فى هذا الميدان ، فلم يعن الغرب بها عناية كافية إما لأنها لا تستحق فى نظره أن يعنى بها ، وإما لتقصير من جانبنا فى التعريف عنها ؛ بيد أنه يلوح لنا أنه قد تتاح فى المستقبل القريب فرص جديدة للتعاون الأدبى بين الآداب العربية والغربية ، فقد أثيرت مسألة النقل والترجمة فى أكثر من مؤتمر دولى فى الأعوام الأخيرة ، وأدلت مصر بصوتها فى هذه المؤتمرات على يد نادى القلم المصرى ؛ وقد بدت أخيراً نتائج هذه الحركة بصورة عملية ؛ فقد تقدمت بعض هيئات النشر الانكليزية إلى نادى القلم المصرى تطلب معاونته فى التعريف عن بعض الآثار العربية المصرية التى تصلح للنقل إلى الانكليزية ، وذلك لتترجم وتنشر بالانكليزية ، والمعروف أن هذه الهيئات قد وضعت مشروعا كبيرا لترجمة الآثار الشرقية النموذجية إلى الانكليزية ، وأفسحت فيها مجالا كبيرا للآثار العربية ؛ وسوف يعنى نادى القلم المصرى ببحث هذه المسألة واختيار الآثار النموذجية الصالحة ؛ والمرجو أن يسفر هذا التعاون فى القريب العاجل عن أثره المحمود فى التعريف عن طائفة من كتابنا وآثارنا ، وأن يتسع نطاقه مع الزمن حتى يغدو تبادلا حقيقيا بين الآداب الشرقية والغربية .

مهرجان أولمبى للآداب والفنون :

وقفنا فى الصحف الفرنسية الأخيرة على نبأ مشروع طريف تبحثه اليوم بعض الدوائر الأدبية فى مدينة مونبليه ، ذلك هو السعى إلى إقامة مهرجانات دولية أولمبية تمثل الحركة العقلية والفنية . ولقد قيل فى ذلك إن المهرجانات الأولمبية التى تقام فى عصرنا لا تمثل إلا ناحية واحدة هى الثقافة الرياضية ، وهذه الناحية لا تمثل كل ما رتبه القدماء على إقامة الاحتفالات الأولمبية ، فقد كانت هذه المهرجانات الشهيرة تضم عدا الرياضيين عدداً كبيراً من المفكرين والموسيقيين والفنانين يعرضون ثمرات قرائحهم إلى جانب الألعاب الرياضية ويمثلون بذلك القوة العقلية والمهارة الفنية كما تمثل الألعاب القوة البدنية والمهارة الرياضية . ويرى أصحاب هذه الفكرة أن ينظم كل أربعة أعوام مهرجان أولمبى عقلى وفنى فى إحدى مدن أوربا التى اشتهرت بتراثها الفنى أو الثقافى مثل أوكسفورد وفلورنس وهيدلبرج ومونبليه ورومة وأثينا وغيرها . وتختار كل أمة من الأمم المشتركة فى المهرجان وفداً يضم بعض المفكرين والشعراء والموسيقيين والفنانين يعرضون فى المهرجان ثمرات الحركة العقلية والفنية فى بلادهم فى شكل قطع شعرية أو موسيقية أو تمثيلية أو محاضرات يلقيها أو يمثلها الاخصائيون كل فى ناحيته ، وإن يقع الاختيار بالأخص على كل ما يصلح للعرض أو الالقاء التمثيلى ، ويختص كل وفد بيوم يعرض فيه ما لديه على ممثلى الأمم الأخرى ، ويشمل البرنامج إقامة حفلات تمثيلية وموسيقية وراقصة عامة تتبارى فيها مختلف الوفود ، ويقترح أصحاب الفكرة أن تكون مدينة مونبليه مركزاً لأول مهرجان أولمبى عقلى إذ هى مهد قديم من مهاد الثقافة من الجنوبية ، ثم يعقد المهرجان بعد ذلك كل أربعة أعوام فى إحدى المدن التى اشتهرت بتراثها العقلى أو الفنى والتى لها طابع عالمى

نقول وهذا مشروع بديع بلا ريب ، ومن المحقق أنه يلقى تأييداً من المفكرين والفنانين فى أنحاء العالم ، ومن المحقق أن تنفيذه يعاون فى تقارب الشعوب وتعاونها معاونة لا تحققها المهرجانات الأولمبية الرياضية

أثر الفراعنة فى الفن السينمائى

هل تصدق أن الأفلام الفكاهية التى تعرف باسم «مكى ماوس» والتى غدت من أشهر المناظر السينمائية فى عصرنا إنما ترجع إلى أصل فرعونى ؟! هذا ما يقوله العلامة الأثرى البلجيكى الأستاذ جان كابار نزيل مصر الآن ؛ فهو يقول لنا إنه انتهى فى مباحثه إلى أن هذه المناظر والصور المحدثة قد عرفت فى مصر الفرعونية قبل أربعة آلاف عام ، وأنها وجدت مرسومة على القبور الفرعونية قبل أن تظهر على شعار السينما ؛ ويستدل العلامة المذكور على صدق نظريته بما يأتى:

أولا — يوجد فى متحف القاهرة صورة للملكة ماكيت وهى تشبه ميكى ماوس شبها عجيبا ، وقد صورت وهى تتلقى احترام رعاياها

ثانيا — يوجد فى متحف بروكسل الملكى وفى متحف التاريخ صورة لهذه الملكة ترى فيها وهى تتناول طعامها وأمامها قطة تقوم بخدمتها

ثالثا — توجد فى متحف تورينو لوحة من ورق البردى صورت عليها صورة جوقة موسيقية من عدة حيوانات : حمار بيده معزف ، وأسد ينفخ فى مزمار ، وتمساح بيده قيثارة ، وقرد يقود الفرقة بحركاته وينفخ فى مزماره ؟ وهذه الصورة تماثل شريطا من أشهر الأشرطة الفكاهية من نوع مكى ماوس التى عرضت أخيرا فى دور السينما

ففى ذلك كله ما يدل على أن المصريين القدماء مع تمسكهم بالرسوم الدينية العميقة ، وتعلقهم بالشعائر المقدسة ، كانوا فى نفس الوقت يمزجون فنونهم الرصينة ونقوشهم المقدسة ، بنوع من الفكاهة ، وعلى أنهم قد عرفوا قبل آلاف السنين أن يتخذوا من الحيوانات رموزا لتمثيل الأفكار الفكاهية والسخرية الانسانية على نحو ما يبدو الآن فى الأفلام التى تتخذ أبطالها من الحيوانات وهى المعروفة بميكى ماوس

كتاب جديد عن مصر :

صدر أخيراً بالألمانية كتاب جديد عن مصر وضعه أستاذ مجرى كان مديراً لمتحف فؤاد الزراعى وعنوانه : الاقتصاد الزراعى فى مصر المعاصرة « Die Land wirt schaft im heutigen Agypten » وفيه أبحاث مستفيضة فى كل ما يتعلق بشؤون مصر الاقليمية والزراعية والصناعية ، مثل تربة الأرض والنيل وطرق الرى وخزان أسوان ، والمواسم الزراعية ، والمحاصيل ، وزراعة القطن ونسجه ، والقروض الزراعية والتعاونية واستغلال المصايد والملاحات وشؤون المواصلات والتجارة الخارجية وغيرها مما يتصل بموضوع الاقتصاد الزراعى ، ويختتم المؤلف كتابه ببحث قيم فى وسائل تنمية الاقتصاد الزراعى المصرى ، ويبدى فى بحوثه خبرة واطلاعاً واسعين ، وقد تولت نشره مطبعة « شوليه » فى فينا

رنيه بنجامان

قدم القاهرة منذ أيام قلائل الكاتب الفرنسى الكبير رنيه بنجامان ، وقد ألقى محاضرة شائقة عن « رسائل بلزاك الغرامية » وسيلقى محاضرة أخرى فى الخامس والعشرين من هذا الشهر عن « موليير وشخصيته » بقاعة يورت التذكارية . ومما يؤثر عن الكاتب الكبير أنه من أقدر المحاضرين فى فرنسا ، فهو يتمتع فى الالقاء بمواهب ساحرة ، وأسلوبه جذاب رائع ، وقد اشتهر بمحاضراته الأدبية والتاريخية الشائقة

كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء المعرى

هذا الكتاب الغريب فى بابه العجيب فى أسلوبه قد وضعه أبو العلاء فى الوعظ وتمجيد الله فزعم بعض أعدائه أنه يعارض به القرآن . وقد فقد هذا الكتاب فيما فقد من آثار هذا الفيلسوف حتى عثر على جزئه الأول الأستاذ محب الدين الخطيب وأهداه إلى المرحوم تيمور باشا ، ثم قيض الله له صديقنا الأستاذ محمود حسن زناتى أمين الخزانة الزكية سابقاً فأخذ يقدم له ويعلق عليه ويشرحه ويصححه ، وسيقدمه إلى الطبع عما قليل وهى بشرى نزفها إلى أصدقاء أبى العلاء من أعيان الأدباء والعلماء

الكتب

شعراء مصر وبيئاتهم

فى الجيل الماضى

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

أحوج ما يحتاج إليه أدبنا سواء فى ذلك قديمه وحديثه ، معرفة مكانة الأدباء والشعراء ، لا من حيث البلاغة والفحولة والمعانى الشعرية فى ذاتها فحسب ، بل من حيث الخاصية النفسية لكل منهم ونوع مزاجه ووشائجه الانسانية ونظرته إلى الطبيعة وفلسفته فى الحياة إن كانت له نظرة وفلسفة

وقد تناول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه الأخير شعراء الجيل الماضى يتخللهم بلحظه الناقد وطبعه القويم ، فاذا الرعيل المحشود فى صعيد واحد تتبين له ألوان وشيات مهما خفتت وتقاربت ، وتتميز له ملامح وسمات مهما خفيت وتشابهت ، وإذا بكل شاعر من شعراء ذلك الجيل مبيت فى حيزه ، وكل أمر من أموره مقرر فى نصابه .

وقد انتظم الكتاب بين دفتيه الساعاتى وعبدالله فكرى وعبدالله نديم وعلى الليثى ومحمد عثمان جلال ومحمود سامى البارودى وعائشة التيمورية وحفنى ناصف واسماعيل صبرى والسيد توفيق البكرى ومحمد عبد المطلب وحافظ ابراهيم وشوقى ثم كلمة ختام عن مدارس الشعر بعد شوقى

والأستاذ العقاد فى كلامه عن هؤلاء لا يرسل القول إرسالا ، بل يدعمه كعادته بما أحاط به تحصيله الواسع وأدركه تفكيره العميق من بحوث عالية فى رسالة الأدب للحياة وموازينه الصحيحة والفروق الفاصلة بين شعر الصنعة وشعر الطبع وبين الذوق الخاص والذوق العام

« فالذوق ذوقان : فأما الشائع منهما فهو الذوق الذى يتملى الجمال ويستحسنه حين يراه معروضا عليه . وأما النادر منها فهو الذوق الذى يبدع الجمال ويضفيه على الأشياء ولا يكون قصاراه أن يتملاه حيث يلقاه أو يساق إليه .

فالذين يحبون محاسن الطبيعة كثيرون يحسبون بعشرات الألوف وكل من يخرجون إلى الرياض ويجلسون على الجداول ويسهرون فى القمراء ويستمعون إلى شدو العصافير ويبتغون منازه الأرض فى المواسم وأيام البطالة — هم محبون للطبيعة يشغفون بها كما يشغفون بالفرجة والاسترواح . وقد يشبههم فى هذا بعض الأحياء التى تغرد على الشجر كلما آن الأوان أو تأوى إلى الظلال والأمواه كلما حنت إلى الراحة وبرد الهواء .

ولكن هذا هو الذوق الشائع كما قلنا ، وليس هذا هو الذوق الخالق المحيي الذى يضيف من عنده شيئاً إلى شعور الناس بما يراه ويصفه ويحكيه

إنما صاحب الذوق الخالق المحيي هو الذى ينقل إليك إحساسه بالشيء القديم الموجود بين جميع الناس ، فاذا بك كأنك تحسه أول مرة لما أودعه فيه من شعور وما أضفاه عليه من طرافة . فاذا وصف البحر أو السماء أو الصحراء أو الروضة فكأنما هو يجعلها بحره وسماءه وصحراءه وروضته لفرط مامزج بينها وبين مزاجه وشعوره . وتسرى إلى القارىء هذه الجدة فيرى هذه المناظر بعين غير التى كان يرى بها مألوفاته

ومن ذاك المعين الفياض نبع وصف الأقدمين للطبيعة ومحاسنها ومخاوفها فتمثلوها — لفرط شعورهم بها — عرائس وحوراً وأطيافاً وأرواحاً وبعثوها جنة وشياطين وأغوالا . لأنهم عاشوا فيها وعاشت فيهم فمزجوها بدمائهم ولم ينظروا إلى الطبيعة كأنهم ينظرون إلى « سجادة » منسقة الخيوط مزبرقة الألوان مريحة لمن يمشى فوقها أو ينام عليها كما يستريح العديد الأكبر من رواد الرياضة فى منازه الخلاء

فالرياض — عند الشاعر من هؤلاء — والخمائل والجداول والأنهار والسموات هى بعينها رياض زوار « المواسم والآحاد » وخمائلهم وجداولهم وأنهارهم وسمواتهم لا تزيد ولا تنقص . . . . وإن بيتاً واحداً كبيت البحترى الذى قاله فى الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا   من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ليساوى كل ما نظم شاعرهم فى ربيعياته وريحانياته : لأن الطلاقة والاختيال والبشاشة والحسن الذى يهم بالكلام هى علامات الربيع المبثوث فى النفوس . وكل كلمة من هذه الكلمات تدل على النفس الحية التى تشاهد الربيع أكثر من دلالتها على الربيع الظاهر فيما يبدو للعيان أو على « السجادة » المزخرفة بالاصباغ والنقوش والدوائر

والخطوط . . . ولو لم يكن البحترى قد أحس بشاشة الطلاقة وزهو الاختيال وفرح الحياة النامية ونجوى الحسن المتكلم حين شهد ربيعه لما كان لزاما أن يذكر هذه الكلمات ويجمع بين هذه الصفات . ولكانت له مندوحة عنها بوصف الأحمر أو الأخضر يبحث له عن أحمر أو أخضر مثله فى محفوظات المشبهين ، وبوصف العطر يطابق حوله الند والبخور ، وكلمة من هنا وكلمة من هناك عن الخدود والعيون والوجد والهيام على نحو ما يفعل شعراء الصنعة

وشعر الصنعة ليس على نهج واحد كله , فمنه ماهو زيف فارغ لا يمت إلى الطبيعة بواشجة ولا صلة . وليس فيه إلا لفظ ملفق وتقليد براء من الحس والذوق والبراعة . ومنه ماهو قريب إلى الطبيعة ولكنه - كما قدمنا - منقول من القسط الشائع بين الناس . فليس فيه دليل على شخصية القائل ولا على طبعه ولا تتبين فيه لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التى يتميز بها إنسان بين سائر الناس

وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس « الخاصة » إن أردنا أن نضيق معنى الامتياز . وليس هو من أجل ذلك بالشعر الذى هو رسالة حياة ونموذج من نماذج الطبيعة . وإنما ذلك ضرب من المصنوعات غلا أو رخص على هذا التسويم

والفرق بينه وبين شعر « الشخصية » أن الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هى ، لا كما تنقلها بالمجاورة والسماع من أفواه الآخرين . فهذه هى الطبيعة وعليها زيادة جديدة مطلوبة أبدا ، لأن الحياة والفن على حد سواء موكلان بطلب « الفرد » الجديد أو النموذج الحادث ، أو موكلان بطلب « الخصوص » والامتياز لتعميمه وتثبيته والوصول منه إلى خصوص بعد خصوص وامتياز بعد امتياز

وأقرب ما يمثل به لذلك زارع يستنبت صنوف الثمار لينقى منها « المميز » فى صفة من الصفات المطلوبة . فاذا عثر بالثمرة الواحدة التى وصل فيها إلى غرضه قومها وحدها بعشرات الأفدنة من الثمرات الشائعة عند غيره ، لأنه بهذه الثمرة الواحدة ليستأثر بالطلب والاقبال ويعفى على ثمرات الشيوع والعموم

وهكذا الشخصية الممتازة فى عالم الشعر أو فى عالم الحياة عامة : هى عندنا وعند الحياة التى أنشأتها أقوم من جميع المتشابهات الشائعات وإن كن جميعا مطبوعات غير مقلدات ولا زائفات

وإنما يستحق الشعر أن يسمع ويحفظ حين يكون كهذا الشعر - وقد أورد الأستاذ أروع الأمثال عليه - الذى يرينا ما فى الدنيا وما فى نفس إنسان ، ونعرف فيه الطبيعة على لون صادق ولكنه أيضا لون بديع فريد لأنه لون القائل دون سواه ، فتجتمع لنا غبطة المعرفة من طرفيها ، ويتسع أمامنا أفق الفهم وأفق الشعور ، إذ يتكرر الشعور الواحد باختلاف الشعراء كأنه مائة شعور ، ويتكرر فهم الحقيقة الواحدة كأنها مائة حقيقة ، وتلك هى الوفرة التى تتضاعف بها ثروة الحياة ، ونصيب الأحياء منها ،

وفى هذه الصفحات التى أدمجناها ما يجعل الاضافة والتعقيب فضولا منا . وإن القارىء بعد هذا الذى قدمناه لاشك مؤثر أن يخلو بالكتاب ونفسه

« ص »

أحـــــلام الصبا

للأديب إدوار حنا سعد

١٣٠ صفحة من القطع المتوسط

طبع بمطبعة مصر بالاسكندرية

قليل من أدباء الشباب فى مصر من يجمع فن القصة إلى جانب الشعر ، فالأديب الناشىء فى طور التثقيف عادة إما أن يقتصر على قرض الشعر ويتجه إليه بكليته حتى يجعله يطغى على غيره من فنون الأدب ، وإما أن يقتصر على القصة فتملك عليه زمامه وتشغله عما عداها من أغراض الأدب الأخرى ، وإما أن يجمع بين الأثنين فيغلب أحدهما على الآخر ويطغى عليه

وبين يدى الآن مجموعة من الشعر والقصص أهداها إلى صديق أديب جمعها فى كتاب أسماه « أحلام الصبا » . وقد قدم الأستاذ فخرى أبو السعود للكتاب بمقدمة قصيرة ، تناول فيها شخصية المؤلف ببعض التحليل ثم تكلم عن القصص وتحدث عن استقلال الكاتب فى موضوعاته ومتانة صياغته للقصة ، وربط أجزائها وحسن نسجها . وختم الأستاذ مقدمته بالكلام عن الشعر مستدلا ببعض بيوت المؤلف فى معرض حديثه

ننتقل بعد ذلك إلى قسم القصص فى الكتاب . . . فنرى أن قصص المؤلف وإن كانت تدور حول موضوعات مطروقة من قبل إلا أنها حسنة السبك متينة الصياغة ، تسبغ عليها البساطة روعة الحقيقة . وأذكر منها هنا قصة « أحلام الصبا » ، وقصة « رقصة شيطان »

وأما الشعر فهو يشغل النصف الثانى من الكتاب ، وللمؤلف نزعة شعرية وطابع خاص فهو يميل إلى الشعر الغنائى ، ولذا كثيرا ما نراه يختار لذلك البحور القصيرة ، وهو لا يهتم بجانب المعنى

قدر اهتمامه بموسيقية الألفاظ ، فكثيرا ما يخرج القارىء من بعض قصائده دون أن يلفت نظره معنى جديد . أما شعره فى جملته فسهل الألفاظ ، رقيق الديباجة ، موسيقى التوقيع . . ومن جيد شعره قصيدة « أنت وأنا » وقصيدة « لقاء الحبيبين »

والمؤلف من أدباء الشباب الذين جمعوا بين القصة والشعر ، وغلب أحدهما على الآخر ، فنرى القصة غالبة عليه ، وأغلب الظن أنه لو والاها وصرف فيها بعض عنايته لكان له فيها مستقبل زاهر

أحمد فتحى مرسى

طلعت حرب

للأدباء : حافظ محمود ، مصطفى الفلكى ، محمود فتحى عمر

١٨٠ صفحة من القطع الكبير طبع بمطبعة مصر .

كثيرا مايطالعنا كتاب الغرب وأدباؤه بدراسات تحليلية طويلة ، وبحوث فائضة فى حياة زعمائهم ، اعترافا بفضلهم وإشادة بذكرهم وحثاً لغيرهم على الاقتداء بهم والنسج على منوالهم

وهذه الناحية التحليلية التى نراها بين أدباء الغرب قلما نجد لها أثراً ظاهراً فى الأدب الشرقى . . . . فأدباء الشرق لا يعنون بدراسة زعيم ما ، مادام بين ظهرانيهم ، وما دامت تجرى فيه دماء الحياة ، حتى إذا ضمه القبر ووراه التراب ، بدأوا يجمعون شتات أخباره ، وتثير آرائه وأفكاره ، فيما يسمونه ببحث فى حياة الراحل ، أو تحليل لشخصية الفقيد

وبين يدى الآن كتاب أعده منوالا يجب النسج عليه ، وثمرة فكرة طيبة يجب اقتفاء أثرها ، وضعه ثلاثة جمعتهم بزعيم مصر الاقتصادى « طلعت حرب باشا » صلة وثيقة ، فألموا بدقائق حياته عن قرب ، ودرسوا شخصيته عن كثب ، ثم كشفوا لنا فى كتابهم عن صفحات ناصعة من حياة ذلك الرجل العظيم ، ودرسوا ماضيه وحاضره ، وبينوا لنا آراءه وأفكاره لافى الناحية الاقتصادية فحسب ، بل فى غيرها من نواحى المجتمع ، مستدلين بصفحات من مؤلفاته ونبذ من خطبه

وقد وفق الأساتذة المؤلفون إلى متانة نسج الكتاب وحبك خيوطه ، مما لا يجعل الملل يتسرب إلى نفس القارىء أو يدركه الضيق من طول الكتاب

(ف)

ثورة العرب الكبرى

تأليف السيد عبد الحميد راضى

١٢٠ صفحة . ورق صقيل . مطبعة الجزيرة ببغداد

من بواعث الغبطة والسرور ، أن نرى تلك النهضة الأدبية التى يحمل لواءها شباب العراق ، والتى تنتظم ربوع دجلة والفرات تنشط يوما بعد يوم ، فتعيد إلى الأذهان سيرة السلف الصالح وذكريات الماضى المجيد . . .

وأمامى الآن قصة شعرية طريفة وضعها أديب عراقى ، وتناول بها موضوع الثورة العربية الكبرى ، فبسط لنا دقائقها وصور حوادثها . وقد بدأت القصة بتمرد العرب على الأتراك ، وانتهت بوفاة الملك حسين بعد أن تنازل عن العرش لولده الملك على

وقد راقنى موضوع القصة بقدر ماراقنى أسلوبها ، فالمؤلف فى كتابه قوى الصياغة ، متين النسج ، غير متكلف النظم يرسل الشعر إرسالا على سجية الشاعر المطبوع دون تصنع أو تكلف

ولا يسعنى هنا إلا أن أهنىء المؤلف بكتابه الفريد كما أهنىء العراق بأدبائه النابهين وشبابه الناهض

أ . ف

كتاب الشهر

تتقدم دار الثقافة العامة ، وقوامها جماعة من شباب الجامعة وخيرة رجالها ، وكبار أصدقائها إلى قراء العربية فى أقطارها بمشروعها الجديد « كتاب الشهر » وهو سلسلة من المؤلفات ، يخرج كل مؤلف منها فى موضوع مستقل يكتبه عالم أو مؤرخ أو أديب أو بحاثة متخصص ، وتكون غاية هذه الكتب تلخيص وتيسير مباحث العلم والتاريخ والأدب والسياسة وتقريبها فى أسلس أسلوب إلى أذهان قرائها ، مراعية إلى جانب الدقة فى اختيار المواضيع حسن العرض ، ورخص الثمن حتى تكون فى متناول الجميع . وقد اختيرت طائفة من فروع

العالم المسرحي والسينمائي

روميو وجولييت لشكسبير

اخراج ايرفنج تالبرج

لناقد « الرسالة » الفني

استطاع المرحوم « ايرفنج تالبرج » أن يخلد اسمه فى عالم السينما كمخرج قوى وعظيم باخراجه رواية روميو وجولييت . وتالبرج هـذا كان من كبار مخرجى شركة مترو جلدوين ماير الذين يشار إليهم . كان جريئاً مجدداً ، عمد إلى اقتباس أشهر المسرحيات العالمية الحديثة واخراجها على الشريط . وتاريخه جليل حافل ولكنه فى اخراجه البديع لهذه الرواية أضاف مجداً إلى مجد ، وكان هذا الفلم خير عمل يختم به مخرج حياته الحافلة .

لم يكن تالبرج أول من اقتبس أعمال شكسبير للسينما الناطقة ، بل سبقه إلى هذا المخرج المسرحي والسينمائي العظيم «ماكس رينهارت» إذ أخرج رواية « حلم ليلة صيف » A Mid Summer Night's Dream وهى أصعب روايات شكسبير فى الاخراج السينمائى ، ولكن ذلك الفنان العبقرى استطاع أن يبرزها على الشاشة فى أجمل الصور وأحبها إلى النفس ، فله فى هذا فضل السبق إلى جانب الروعة التى لم يدركه أو يدانه فيها أحد . على أن أهم ما يمتاز به اخراج تالبرج هو الصدق وعدم المغالاة ، والدقة فى ابراز حوادث الرواية والمحافظة على روحها واستعمال الحوار الشعرى الذى وضعه شكسبير نفسه

يعرف القراء أن اقتباس سيناريو من رواية مسرحية عمل من الصعوبة والدقة بمكان ، لأن الكاتب يعمد إلى ترجمة الحوار إلى صور ، وليس كل حوار يمكن أن يترجم إلى صور ، والمسرحية مقيدة بزمان ومكان ، ولكن روايات شكسبير تشذ عن هـذه القاعدة ، فالمسرح فى عهـد شكسبير لم يعرف المناظر التى تتغير ، لأن الستار لم يكن قد عرف بعد ، وكانت الحوادث تمثل على مسرح مرتفع ويُكتفى بإبراز لوحة صغيرة مكتوب عليها اسم المكان الذى تجرى فيه الحادثة ، وعلى رواد المسرح أن يتخيلوا المنظر أمامهم ، ولهذا لم يتقيد المؤلف بالمكان فكثرت المناظر فى الرواية الواحدة وكانت نتيجة ذلك تتابعا مستمرا فى الحوادث دون انتقال مفاجىء أو انقضاء فترات طويلة بين فصل وآخر ؛ وهذا يشبه فى نواح

المعرفة العامة لتصدر بها السلاسل الأولى من كتب الشهر ، وهى السياسة الدولية فى أشخاص قادتها العالميين المحدثين . والتاريخ الإسلامى يمثله ستة من عظمائه لكل كتاب على حدة ، وتاريخ مصر الحديث فى كتب ستة ، وتاريخ العقائد الشرقية القديمة يبحث تاريخ آلهتها وأنصاف آلهتها فى أبدياتها

وبين يدى القراء الآن ، كتاب الشهر الأول عن هتلر وسيتبعه فى الشهر التالى كتاب ثان عن موسولينى ثم ديفاليرا ثم مصطفى كمال ثم ستالين

فاقتناء هذه السلاسل ، والحرص عليها ، يكون لدى أصدقائها بعد مدة وجيزة ، مكتبة نفيسة لن تقل قيمة عن مكتبات كتب الجيب والست بنسات وغيرها التى عرفت فى اللغات الأوربية . ولتيسير إقتناء السلاسل ، وضعنا نظاما للاشتراك فيها ، وهو عشرة قروش لكل سلسلة ، أى أنها تكون ثمناً لستة كتب (وتتضاعف القيمة للخارج)

ويسر دار الثقافة العامة ، أن تجد لغيرتها على مستوى الفكر المصرى العربى صدى يكون المكافأة الحقة لجهودها بعد أن اتضح من رخص أثمان الكتب ، وقيمة الاشتراك فى سلاسلها إلى جانب جودة الطبع ، ما ينفى كل فكرة عن أن غايتنا هى مجرد الاتجار أو الكسب

محمد صبيح

كثيرة القصة السينمائية. ولهذا كان الطريق أمام كاتب سيناريو هذا الفلم ممهدا فلم يلق صعوبة تذكر فى عمله وجاء الفلم مطابقا للمسرحية فى كل نواحيها

ولقد أمكن المخرج ومساعديه أن يبرزوا الفلم فى جمال وقوة وروعة، وللمدير الفنى «جورج كيكور» فضل كبير فى نجاح الفلم وظهوره فى هذه الصورة الكاملة: من إتقان فى المناظر والإضاءة والتصوير مما يليق برواية الحب الخالدة التى يحفظ كل شاب وفتاة حوادثها

لم تكن المناظر عظيمة ولا ضخمة ولا ذات ترف كبير وما إلى هذا مما يعمد إليه المخرج الأمريكى سيسيل دى ميل للتأثير فى رواد أفلامه، فالمناظر بسيطة وفى حدود ضيقة، ولكنها تتسق مع القصة وحوادثها. ولقد أدت مهمتها فى معاونة الممثلين على الوصول إلى قرارة النفوس

إن من يتتبع الفلم باهتمام لا يكاد يلمس للمخرج أو المدير الفنى خطأ يحصيه عليه منذ بدء المعركة الأولى بين آل منتاجو وآل كابيوليت حتى موت روميو وجوليت وتصافح الزعيمين أمام قبرهما اللهم إلا موقفاً واحداً عند ما تلتقى عينا جوليت بروميو وتنسى نفسها فالحوادث هنا تجرى أسرع مما ينبغى

لعل أول ما خطر ببالى عند ما سمعت بتوزيع الأدوار فى الفلم أن نورما شيرر تكبر فى السن عن الحد الذى يليق بجوليت وقدرت لها السقوط، ولكن الواقع كان عكس ما ظننت، فهذه الممثلة استطاعت أن تؤدى الدور على خير ما يكون وأن ترتفع به إلى أعلى درجات النجاح، فصورت الطفولة والسذاجة فى جوليت الصغيرة حتى أحس رواد الفلم أن الممثلة التى أمامهم فتاة فى الحلقة الثانية لا امرأة فى الحلقة الرابعة، ولكنها مع هذا كانت تمثل بحذر وترقق من نبرات صوتها حتى تبدو صغيرة، فنجحت فى التمثيل ولكنها لم تستطع أن تحيي الدور، وهنالك فرق كبير بين أن يحيى الممثل الدور وبين أن يجيد تمثيله

وليسلى هوارد شاب توافق سنه سن روميو وقد نجح فى أداء الدور ولكن ليس إلى الحد الذى قدرناه. كانت حركاته ثقيلة وصوته خشناً أجش وإن كان يعبر بوجهه تعبيراً حسناً وموقفه فى الفلم عكس موقف نورما شيرر فهو مع صغر سنه بدا كبير السن فى الفلم

مثل جون باريمور دور «ماركيشيو» وكان بديعاً إلا أنه غالى فى تصوير الشخصية، وهذه المغالاة تبدو لمن قرأ الرواية أو رآها على المسرح، ولكنه وهو يموت من أثر الطعنة التى أصيب بها كان بديعاً وقد وصل إلى القمة

والقسيس كان خشناً وقسمات وجهه قاسية ولم تبد منه نواحى الحنان والشفقة التى تحبب الانسان إلى رجل الدين وتجعله يبوح له بمكنون سره، وأجاد بقية الممثلين أدوارهم ولا سيما المربية مما جعل الاتساق يسود الرواية ويجعل التمثيل فى قوة الإخراج

عرضت سينما ديانا بالقاهرة ترجمة عربية للحوار ولكنها مع الأسف كانت ترجمة سخيفة، وكان ظهورها على الشاشة يتأخر دائماً، ونرجو لو تعنى إدارة السينما باللغة العربية وبرواد السينما من المصريين وعواطفهم أكثر من هذا؟

يوسف تادرس